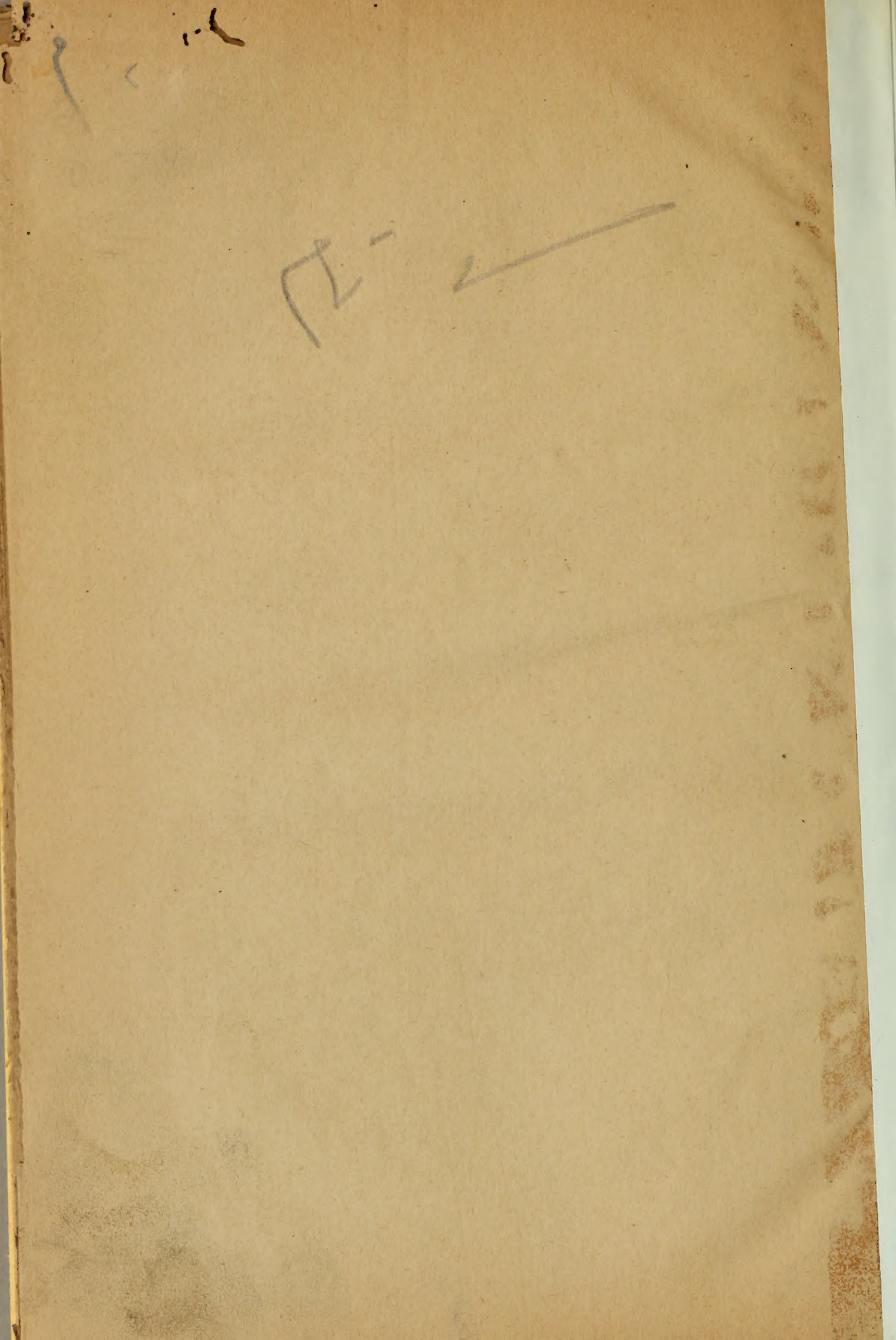

UTL AT DOWNSVIEW
D RANGE BAY SHLF POS ITEM C
39 11 16 07 05 017 6



هذه رسالة الكلم الثمان للعلامة
الاوحد والعلم المفرد استاذ
الاساتذة وعماد الجهابذة
الشيخ حسين المرصفى
حفظه الله
آمين

* من حسنات دهرنا وما ثر عصرنا أن قد من الله علينا بما هو كالروح *
* للاجسام والطبيب للاسقام ألا وهو هذه الرسالة الموسومة بالكلم *
* الثمان لحضرة فاضل هذا العصر الشيخ حسين المرصفى حفظه الله فقد *
* احتوت على درر المباحث وغرر المطالب فهى هدية ساقتها الينا *
* النشأة الجديدة ومنحتنا بها الهيئة السعيدة بين لنا فيها ما به التربية *
* الصحيحة وما يلزم لكل من المربى والمربى وحقيقة الالفاظ العامة *
* الدائرة على ألسن شبان زماننا مثل الوطن والحرية والامة والعدالة *
* والظلم والسياسة والحكومة الى غير ذلك من المباحث التى طالما *
* قرعت الاسماع غير مكشوفة القناع فكان كل يذهب فيها الى *
* مذهب ويدعى انه الى الصواب اقرب فجاء لنا هذا الهمام بما أزال *
* الابهام ونوّر الافهام واستبان به الحق من الضلال والجائز من *
* المحال بالفاظ رائقة وتقسيمات شائقة وتعاريف جامعة مانعة *
* وتوضيحات شموسها طالعة مع أسلوب بديع وترتيب رفيع *
* يكاد من رقة الالفاظ يعشقه * روح النسيم وبرق السمع يخطفه *
* فيا اولى الالباب وعصابة الآداب هلموا الى اجتناء ثمار تلك الرسالة *
* التى بينت لنا سواء السبيل بيانا ناسفر عما لمؤلفها من علو الهمة وصدق *
* العزيمة حفظه الله ورعاه وأجاب على منابر الاستفادة دعاه آمين *

على عمرو

ماشاء الله كان



بسم الله الرحمن الرحيم

أرجو قبول هدية * لقيتهم الكلم الثمان
أهديتها لاولى النهى * فتيان أبناء الزمان

هذه رسالة ألتمس من قرائها أن يخصوها بجانب عظيم من عنايتهم حتى لا يفوت فهمهم شئ مما تشير اليه بعض عباراتها وأن يكرروا النظر لاستثبات معانيها وبها أخاطب أذكياء الشبان من أهل هذه الازمنة التى ابتدأتها الالطاف الحاضرة شرحت فيها كلمات جارية على ألسنة الناس لهجوا بذكرها فى هذه الاوقات كلفظ الامة والوطن والحكومة والعدل والظلم والسياسة والحرية والتربية وأرجو من الله تعالى كما هدانى لذلك أن يستعقب المنفعة المنهوض لتحصيلها

الامة

الامة جملة من الناس تجمعهم جامعة وهى بحسب الاستقراء اللسان والمكان والدين أما الامة بحسب اللسان فهى أسبق استحقاقا لهذا الاسم وهو بها أليق فان جامعتها من ذاتها وهى أدخل فى الغرض من الاجتماع اذ بوحدة النطق يتم الائتناس ولا تكون نفرة ووحشة بخلاف أهل الالسنة المختلفة فانهم فى أول الامر يكونون بمنزلة الحيوانات العجم بينهم نفرة ووحشة حتى يتعلم فريق لسان

فريق وذلك بعد عبور زمان طويل وحينئذ يكونون بمنزلة الامة بحسب اللسان ولم يكن في أوقاتنا وفيما علمناه من الاوقات السابقة للامة بحسب اللسان اعتبار من جهة جمعية السياسة والملك وهيئة الدولة ولو أن الممالك كانت بحسب الالسنة لربما يتخيل متخيل ان الانتظام يكون على غير منزلته من الحسن ولكن تلك حكمة الله سبحانه وتعالى وقد استعقبت فوائد عظيمة منها محاولة سائر الامم وجود الارتباط والعلاقات فيما بينهم فأخذ الناس يتعلم بعضهم ألسنة بعض وبذلك انفتحت أبواب المكاسب وتعينت جهات للارزاق واتسعت دائرة الافكار حيث تلاقت ادراكاتها وتناقلت فيما بينهم على بعد المسافات واختلاف النواحي (وأما الامة بحسب المكان) فهي جملة من الناس تتخذ قطعة أرض محدودة بحدود أربعة تعرفها من علم تخطيط الارض وتسميها اسما يميزها عن غيرها كمصر والحجاز فيقال الامة المصرية والامة الحجازية تعمرها وتأمل أن تعيش كاملة الانتفاع بما تستخرجه من بركاتها مادة حياتها وان تتركها لذلك مأهولة عامرة على أحسن هيئة وأجملها لبنيها وذوي قرابتها أعمالا مستمرة ومقاصد متصلة يخلف بعضها بعضا متزايدة الحسن والجمال متكاثرة المنافع حسب تأصل المعدات لذلك وتجدد الافكار فيه كما قيل

لسنا وان أحسابنا كرمت * يوما على الاحساب نتكل
نبني كما كانت أوائلنا * تبني ونفعل مثل ما فعلوا

فالامة اذن بمنزلة شجرة وجدت مغرسا حسنا وسيق اليها ما تحتاج من مواد النماء والاثمار فهي لا تزال نضيرة المنظر ملتفة الافنان وارفة الظلال وافرة الثمار فتى انتهت مدتها خلفها منها أمثالها

﴿فصل متى تحسن حال الامة ومتى تسوء﴾

متى احترم صغار الامة كبارها وعطف كبارها على صغارها وكانوا أبناء بررة وآباء رحماء واخوة أصدقاء وتلقوا الرأي ممن يراه لا يرد صغير لصغره ولا يقبل رأي كبير لكبره ولا يخاف أحد أن يرد ولا يأنف أحد أن يرد عليه وكانت الغاية المنظورة للكل انما هو تحقيق الحق وتقرير الصواب وتحصيل الصلاح حسن حال الامة ولذلك شواهد منها قال مالك بن أنس أول اكابر الائمة في الملة الاسلامية رضي الله عنه ما منا الا من رد ورد عليه يعني بهذا الكلام ان الغرض انما هو تحقيق الحق لا تهوله جلالة المخطئ حتى يترك ابانة خطئه ولا يرى لنفسه مكانة تأبى له التذكير للصواب ومنها ان محمد بن ادريس الشافعي

رضى الله عنه كان يوما فى حلقة مالك يتلقى عنه تلقى التعلم فجاء رجل يدعى ان انسانا باعه قريا وحلف له انه لا يسكت من الغناء فلما نقله الى منزله وجده يسكت فهل يحنث فى يمينه ذلك البائع وهل له أن يرده بمخالفة الشرطة فأفتى مالك بالحنث واستحقاق الرد فلما انفصل الرجل عن المجلس تبعه الشافعى وسأله أغناؤه أكثر أم سكوته فقال غناؤه فافتاه الشافعى بعدم الحنث واستحقاق الرد فرجع الرجل وأخبر مالكا فسأل الشافعى عن أصله فى ذلك فقال فيما رويناه عن النبى صلى الله عليه وسلم ان امرأة جاءت تستشيره فى زواج رجل فقال هو على ما تبغين من الصدق والوفاء وكثرة الخير الا انه لا يضع العصا يعنى أنه كثير الاسفار قليل الاقامة فرجع مالك رضى الله عنه عن الفتوى ومنها ان بعض الامراء الذين كانوا يتولون تدبير الجيوش فى الحروب الكبار والغزوات المهمة كان من دأبه أن يطوف ليلا متنكرا يتصغى الى صغار العسكر فى خيامهم وهم يتحدثون فيما يلزم من الاعمال لاجل الوصول الى الغاية المطلوبة فكان كثيرا ما يقف بذلك على آراء سديده فاذا أصبح أجرى مقتضاها فدام نجاح أعماله وكان من لا يعرف الحال يتعجب من حسن آرائه ودوام اصابته ومتى كانت الامة على خلاف ذلك فتألهت كبارها واحتجبت بالعظمة واضطرها الشره الى استعمال القسوة وطاش صغارها واسترسلوا فى السفه واتباع الشهوات والمضى مع الاهواء وأدواخدمهم رغبة فى لفاظات الموائد ورهبة من الحرمان المهالك ولا مرشد لهم حيث كان الكبار بتلك الصفة واستحكمت بين الجميع العداوة واستمد بهم التنافس وتمكنت فى طباعهم النفرة فلم يكن الاجتماع أبدا ان وشر خداع كما قيل

ولما صار ود الناس خبا ✽ جزيت على ابتسام بابتسام
وصرت أشك فيمن أصطفيه ✽ لعلمى انه بعض الانام

ساءت حالها ونكدت معيشتها ولم يرج لها اصلاح وكانت بمنزلة غنم متبددة فى صحراء قد أحاطت بها أصناف السباع فبقاؤها سالمة مدة اما لان السباع لم تصل اليها بعد ولا بد أن تصل اليها يوما ما واما لان السباع أدتها المزاحمة الى القتال فصرفها عن الالتفات اليها برهة ولا بد أن تدركها السآمة من القتال وتمنعها شدة الجوع من المضى مع الغضب الذى ربما أذهبته شدة الجوع بالكلية أو يغلب فريق فريقا فيصير الغالب غاصبا ويصير المغلوب سارقا فتقع الغنم بين سارق وغاصب فعلى الامة أن يتشاوروا ويتناصحوا ويسمع كل رأى كل ولا يحتقر أحد أحدا فان الاحتقار سبب النفار وداعية

الجوار فاذا أخطأردوه بلطف وأوقفوه على دلائل الصواب ثم لا يأنف هو من أن يعترف بالخطاء ويسرع الفيئة الى الحق اذ ليس الغرض التعاظم والتعالى بالباطل وغير الباطل والتصلب فى الخطاء والوقاحة فى تأييده وانما الغرض معرفة السبيل الموصلة الى الخير الشامل والبركة العامة لم يمكن حصول الخيرات الخاصة الثابتة المأمونة الزوال فان الغنى اذا لم يكن عن رضا الجميع كان عرضة للتغير ودوامه بدوام سلطة صاحبه وقوته وعجز الناس عنه فتى ضعف وقدر غيره عليه هلك لامحالة فعلى كل أن يلاحظ دائما ان له وعليه ولا يكون مثل من قيل فيه

له حق وليس عليه حق ❊ ومهما قال فالحسن الجميل
وقد كان الرسول يرى حقوقا ❊ عليه لغيره وهو الرسول

وعلى الامة أيضا أن تكون أرضهم بالنسبة اليهم كالدار بالنسبة للشخص كان غيرته وحميته وحرصه على مادة حياته لا تستجيز أن يدخل أحد داره الا على سبيل الخدمة أو الضيافة أو السكنى حيث تفضل عنه داره وتدعوه لذلك حاجة التعاون والائتناس كذلك الامة يجب أن لا يدخل أحد أرضها الا على تلك السبيل ولكل من الخادم والضيف والساكن حدود معروفة غير مجهولة منها ان أحدا منهم لا يتصرف فى الدار الا عن اذن صاحبها ورضاه تحصيلا لمنفعته واعترافا بمساعدته والتصرف عن رأيه كذلك تكون الامة والا كان الانسان أسوأ حالا من البهائم العجم ألا ترى الى السنانير متى اتخذ واحد منها دار قوم بيتا يعيش فيما يسوق الله له من رزقه فيه ورأى هجوم آخر على منزله لم يقنع بالنفرة فى وجهه وهيجان غضبه عليه حتى يدور خلفه فوق أعالى الجدران ويقصيه الى أبعد مكان واذا أحاط به ما أحاط من اناث نوعه ولم يكن رآها قبل ذلك اكرمها وتجاوز لها عن بعض طعامه حيث كان قدومها عليه مع الاعتراف له والدخول فى حيازته وانتظار ما يسمح به لها وهذا الدجاج المضروب به المثل فى الخفة والطيش وأن صغاره أرزن وآلف من كباره كيف ترى الديك يعل متى نظر آخر يحوم حول دجاجته التى يؤثرها على نفسه بالحبة يجدها فيقف عندها ولا يتناولها ويدعوها بصيحات الحنان والشفقة والالفة والمودة وهذه الكلاب التى يقال انها أخس الحيوانات حتى ادخلوا أسماءها والفاظ زجرها ودعائها فيما يدور بينهم من السباب والمشاتمة كيف تراها قد اقتسمت المدينة خططا كل جملة منها قد اتخذت قسما عرفت انه يكفى لترددها

فى طلب رزقها ورياضة أبدانها لاينازع واحد منها صاحبه فترى العدد منها يقف امام الطاعم من الناس ينتظر ما يلقى اليه فيتناوله كل على قدر همته فاذا طرأ غريب عن الخطة قامت عليه القيامة من جميع أهلها فان ساعدته قوة عدوه على الاسراع بالخروج منها والا كانت منتهى أجله هذا وليس لتلك الحيوانات رعاة وولاة تكون وظيفتهم منع تعدى البعض على البعض فكيف اذا انزل الانسان عنها درجة او درجات مع ما اشتملت الجملة منه عليه من الولاة والرعاة وأما الامة بحسب الدين فهى قوم اتبعوا نبيا والتزموا شريعته ووقفوا عند حدودها فلم يتعدوها ولم يخرج بهم تفرق المذاهب الذى هو من ضرورة اختلاف الافهام وتفاوت الاراء الى عداوة تؤثر فى مصالح دنياهم وتبعثهم على القتال وازهاق النفوس وتسالب الاموال فاذا كانوا كذلك لم يكونوا أمة دين وكان الدين بينهم اسما ليس له مسمى ولم يكونوا مؤمنين لفقد الخاصة التى قررها صاحب الشرع علامة للمؤمن اذ يقول المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا * المؤمن لاهل الايمان بمنزلة الرأس للجسد فكيف من لا يكون بتلك الصفة يسوغ له أن يدعى الايمان والاسلام وفيما يتلوه صلى الله عليه وسلم عن ربه عز وجل يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن الا وانتم مسلمون واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فاصبحتم بنعمته اخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فانقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر واولئك هم المفلحون قوله تعالى يا أيها الذين آمنوا معناه يا أيها الذين قصدوا عموم الامن بحيث لا يخاف أحد أحدا على نفس أو عرض أو مال اجابة لنداء الشريعة المصرحة بايجاب تقرير ذلك وادامة رعاية متانة الاسباب التى بها يستقر الامن أمكن استقرار واثبته وقوله اتقوا الله حق تقاته معناه اتخذوا لانفسكم اتخاذ معرفة واتقان احتياط وقاية تحفظكم من سهام سخط الله ونوافذ غضبه المرسلة وسهام الله لا محالة صائبة نحو من يخالف أمره ويقع فيما نهى عنه فان الشر كل الشر فى المخالفة وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وقوله ولا تموتن الا وأنتم مسلمون معناه وادعموا رعاية سلامة الناس من اساءة بعضهم بعضا والمحافظة على قوة أسباب ذلك حتى يكون انتقالكم لغير هذه الدار وأنتم على تلك الصفة ثم بين تلك الوقاية التى أمر باتخاذها وانها أصل كل نعمة بقوله واعتصموا بحبل

الله جميعا ولا تفرقوا أي لا سبب للسعادة الا الاجتماع التعاون واصطحاب الالفة حتى يكون الكل بمنزلة جملة رماح أحاط بها حبل فلم يتمكن أحدهما قوي أن يكسرها ولا سبب للشقاء الا تفرق القلوب والمضي مع الاهواء بحيث لا تكون الامة أمة بل تكون آحادا يطمع فيها كل ضعيف وكثيرا ما ينال رغبته في كسر ما يقصد كسره ويتصرف فيه بمقتضى شهوته ومن ذلك المعنى قول أمير المؤمنين علي كرم الله وجهه ماذل قوم حتى تفرقوا ولا تفرقوا حتى تباغضوا ولا تباغضوا حتى تحاسدوا ولا تحاسدوا حتى استأثر بعضهم على بعض أي الاثرة الذميمة ❊ ومن ضرب المثل بالرماح ما حكي عن المهلب بن أبي صفرة حيث كثر بنوه ورأى قرب انقضاء أيامه فاستحضرهم وأمرهم بجمع رماحهم وجعلها حزمة ثم أمر أكبرهم بتناولها وكسرها فلما عجز أمره بدفعها لمن دونه وهكذا حتى استبان عجز كافتهم فأمر كلا بأخذ رمحه وكسره ففعلوا دون أدنى مشقة ولا تخيل كافة فقال هذا مثلكم ان اجتمعتم أو تفرقتم ❊ ولما كان الانسان موضعا للسهو والنسيان ومحلا للذهول والغفلة لما يعتوره ويكتنفه من الاهواء والشهوات التي باتباعها والانقياد معها يدخل الاختلال على النظام الكلي والمصلحة العامة ثم يسري بغاية السرعة الى النظامات الجزئية والمصالح الخاصة فيصبح الغني فقيرا والقادر عاجزا والشجاع جبانا والذكي غبيا والفطن بليدا ويصير اسم البهائم أولى بهم من اسم الاناسي بل كانت البهائم أحسن حالا منهم كما سلف وكانوا موضع قوله تعالى ان هم الا كالانعام بل هم أضل سبيلا تعين أن يصحبه مذكر دائم وواعظ مستمر يهديه الى قصد السبيل وجادة المحجة كلما جارت به الخيالات الفاسدة والوساوس الرديئة ولتحصيل ذلك ورد الامر في قوله جل ذكره ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير الآية فقد أبان أن لا صلاح للكافة الا بوجود أمة تكون وظيفتها دعاء الناس للخير وصرفهم عن ناحية الشر وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر ونوه بمقدار هذه الامة اذا وجدت ونبه على شرفها وفضل مكانها حيث جعلها مختصة بالفلاح والفوز بحقيقة السعادة اذ قد تكون هي في نفسها صالحة وبها يتم الصلاح فيصير فلاحها أصلا لفلاح سواها فاستحقت ان يقال فيها بعبارة التخصيص وأولئك هم المفلحون وانما يمكن تأدية تلك الوظيفة والقيام بها حق القيام لقوم تقدست نفوسهم وتنقت طباعهم وتهذبت اخلاقهم وتنورت عقولهم وصحت افهامهم ورجحت احلامهم وصدقت عزائمهم وعلت هممهم وعرفوا اجناس الخير واحاطوا بأنواعه وميزوها من اصناف الشر بما اشتبه الحال وتمثل كل

فى صورة الآخر ولولا ذلك لم يكن تميز الخير من الشر امرا عسيرا اذ كان الاساس الضرر والنفع ولا تجد احدا يجهلهما ولكن رب ضار فى الحال نافع فى المآل فيكون خيرا ورب نافع فى الحال ضار فى المآل فيكون شرا وربما اجتمعت المضرة والمنفعة واستويا او غلبت احداهما ومن هنا نشأت الاحتياج لوجود امة تفرغ أنفسها للاشتغال بذلك حتى تحكم امرها ثم تلاحظ الناس فى جميع حركاتهم لتدعوهم الى الخير وتأمرهم بما عرفته خيرا وتنهاهم عما ما أنكرته وعرفته شرا تنصحهم بالتزام ما عرفوه وتدلهم على ما جهلوه فاكثر المنافع والمضار معروف بين لا يختلف بالناس علمه حتى قيل ان الدين أمر تقتضيه الطباع وتدفع اليه الفطرة ولكن الانسان لغلبة هواه قد يبيح لنفسه ما يحكم عقله بمنعه ويجد فى طبعه استقباحه ألا ترى الى السارق والغاصب كيف يستجيز أن يفعل بغيره ما لا يستجيز ان يفعله به غيره فتى سرق ماله أو اغتصب منه وجد بذلك فى قلبه حرارة وفى نفسه ضيقا وتشوش فكره واختلت حاله وبطل نظام سيره وهو لا يريد ذلك بل يريد أن يدوم منشرح الصدر طيب النفس مستقيم الاحوال فهو يحكم بقبح ذلك وحسن هذا وان كان لا يعبر عن ذلك لقصوره عن معرفة الالفاظ بالحل والحرمة والى ذلك المعنى الاشارة بقوله صلى الله عليه وسلم الحلال بين والحرام بين وبينهما أمور مشتبهات وعلى هذه الامة أن تعرف التجددات الزمانية لتكون أعمالها مطابقة للاحوال الحاضرة فرب امر يكون خيرا فى عصر شرا فى غيره ✻ وهل هذه الامة كائنة اوكانت لا أثبت ذلك ولا أنفيه حتى افاوضك الحديث فيه ان قلت هذه الامة متحققة فى خطباء المنابر قلت لك أتريد بهم هؤلاء الذين تراهم وتسمعهم وهم انما تميزوا عن آخر طبقة من طبقات العامة بتمكنهم من قراءة نوع من انواع الخط فغاية امر الواحد منهم ان يقرأ ديوان خطب صنفه بعض اسلافه كما تخيل مناسبا للشهور والمواسم فيحفظ ما تعطيه تلك النقوش من مواد الالفاظ او ينسخ صورة خطبة ليخف حملها عليه اذا قام بها خطيبا يسرد الفاظا حفظها او نظر حروفها لا يعقل معناها ولا يفهم المراد منها ثم اذا لم يكن الديوان مشكولا ولم يقرأ الخطبة على ذى دراية سمعت منه المعجب والمطرب من اللحن الفاحش والتصحيف القبيح فان منهم من يخاف على نفسه انتقاد السامعين فيقرأ الخطبة فى اثناء الاسبوع مرارا على بعض اهل المعرفة حتى يقف على صحة النطق بها ومنهم من يقتصر على تصحيح الحديث احتراما لكلام النبى صلى الله عليه وسلم وربما قرأه على رجل يقيمه له بصناعة النحو

فيضلان جميعا اذلاعمل لصناعة النحو الابعد فهم المعنى ومنهم من لايبالى بتصحيح آية ولاحديث ماظن انك تستجيز ان تقول اردت هؤلاء * فان قلت انما اردت خطباء الاسلاف قلت لك تجاوز عصر النبى صلى الله عليه وسلم وعصر اصحابه ثم اقرأ خطب الخلفاء ونوابهم فى النواحى ثم امض فى ذلك طبقة بعد طبقة وعصرا خلف عصر حتى تنتهى الى وقتك هذا تجد أن جميع الخطب يدور أمرها على معان واحدة وألفاظ معينة لاتجاوزها وهى التزهيد فى الدنيا والترغيب فى الآخرة وتبشير المطيع وانذار العاصى يكررون ذلك كل جمعة وكل موسم حتى لم يبق له تأثير والتحق بالامور المعتادة انما يسمع الناس أصواتا ذات كيفيات مختلفة اقامة لذلك الرسم حسبما اصل اليه فهم العامة من ان تلك الصورة هى اقامة الدين وفى صفة خطباء العصر الثانى بعد عصر النبى وأصحابه يقول شاعره

وذموا لنا الدنيا وهم يرضعونها * أفاويق حتى مايدر لنا ثعل

والثعل بفتح أوله أوضمه وسكون ثانيه زيادة فى أطباء الناقة وغيرها تشبه حلمة الثدى لايخرج منها فى العادة لبن ولاتظن انى أنتقص بذلك خطباء العصور الاولى فانهم كانوا يرون كفاية ذلك لكثرة أهل المعرفة حين ذاك وبالجملة فكيفما كان الحال فى الخطابة فهى غير كافية فى تحقق الدعاء الى الخير والامر بالمعروف والنهى عن المنكر فلا تكون تلك الامة متحققة بخطباء المنابر وان قلت انها العلماء قلت هذا قريب ولكن ننظر أما علماء الصدر الاول رضى الله عنهم وجزاهم عن الدين والامة خيرا فكان اشتغالهم بجمع الاصول وتنقيتها من الدخيل الذى بادر بادخاله أهل النفاق والزندقة لاغراض شتى منها التشكيك فى الدين ومنها التماس ماعند الملوك ومنها ابتغاء منزلة فى قلوب العامة الى غير ذلك مما يحيط به من قرأ التواريخ وتأملها واجتهادهم وبذل هممهم فى تفريع الفروع وتقرير أحكام الحوادث ما كان منها ومالم يكن يفرض ويقدر حتى اذا وقعت الحادثة وجدت لها حكما حاضرا أمرا كائنا فى انفاذ أعمالهم مانعا لهم عن راحة أبدانهم فكان الواحد منهم يقول لاينال العلم براحة الجسم وأما من خلفهم فكان اقبالهم على دواوين مشيختهم يهذبونها ويجيدون ترتيبها ويوضحون مايحتاج للتوضيح منها ويستدركون عليهم مافاتهم تخريجا على اصولهم التى قرروها الى غير ذلك من الاعمال ناظما لهم فى سلك سلفهم فكان حكمهم واحدا لايفرغ لهم وقت يستعملونه فى تعهد الناس ودعائهم الى الخير كما هو وظيفة تلك الامة ثم جاء

من بعد هؤلاء خلف اتخذ والجدل شرعة والمنازعة سبيلا وخرج بهم ذلك الى سباب ومشاتمة واحتقار قوم قوما ورجع بهم الى القدح فى السلف وصار الاختلاف بين أهل المذاهب منشأ العداوة ان لم تكن فوق العداوة بين أهل الاديان فليست دونها فكثيرا ما كانت سببا لتجريد السيوف يقاتل بعضهم بعضا حتى دخل بينهم الحكام لاصلاحهم وكانوا هم الاولى بذلك وهو حقهم الذى ما كان ينبغى أن يمكنوا منه غيرهم وصاروا احزابا ينحاز كل حزب منهم الى ملك من ملوك النواحى وصارت المدائن بمنزلة المعاقل والحصون حتى دخل أهلها تحت نظر السياسة وقهرها وبذلت سيوف المنابر بقطع خشب فى صورتها يتكئ عليها الخطباء حال صعودهم وهبوطهم وآل أمر العلماء الى كونهم طائفة من الطوائف المربوبة المسوسة تلحظ حركاتهم ارصاد الحكومة وتأخذهم عيونها امنعا للتعدى بعضهم على بعض وحسما لمادة الشر بينهم ولعبت بهم أهواء الملوك الجائرة الجهلة من التتر والديلم وغيرهم ونشأ من ذلك مفاسد عظيمة منها تمكن كثير من الجهلة الذين أمضوا صدور اعمارهم فى اللهو واللعب دون فكرة فى تحصيل سبب من أسباب المعيشة حتى دهمهم وقت الاحتياج لذلك من الانتساب الى العلم وأهله فصنفوا كتبا ملؤها أحاديث كاذبة وحكايات غير معقوله وروجوها على العامة وأكلوا بها الخبز وخلطوا ماليس من الدين به فأى مفسدة أكبر من ذلك وليس له سبب الا افتراق العلماء واهمالهم أمر الرعاية ولم يزل الاختلاف الذى هو منشأ تلك العداوة مستمرا يخفيه الضعف وتظهره القوة كما ترى فهل يسوغ لك بعد معرفة هذا ان تقول انها العلماء ❊ وان قلت انها الوعاظ قلت هذا أقرب فان الوعاظة كانت حرفة شائعة وصناعة فاشية كان أهلها يتنافسونها وكثير منهم أخذ عليها الرواتب من بيوت الاموال وأكثرهم كان يلم بها القطع من العامة الذين يحضرون مجالسهم فكان الواعظ اذا فرغ من كلامه الذى أعده لذلك المجلس بسط منديله فطرح فيه كل ماسمحت به نفسه (ومن مضحكات الوقائع فى ذلك) ان واعظا دخل قرية فجلس فى مسجدها للوعظ فلما فرغ وجد الناس يذهبون ويجيئون هذا بشئ من الصوف وهذا بشئ من القرون حتى اجتمع بين يديه من تلك الاصناف مالا يحمله الا عدة اجرة فقال الواعظ اما يباع هذا فان ثمنه أخف محملا فقالوا لو كان عندنا نقد لاعطيناك منه وانما هذه أموالنا وليس لنا متاع سواها فخرج من قريتهم صفر اليدين وصنفت لاجل الوعاظة كتب لقبوها بالمجالس تشتمل على تفسير آيات من آيات الترغيب والترهيب وبعض

احاديث

أحاديث صحيحة وغير صحيحة وبعض أشعار وحكايات من ذلك الوادى وأنموذج
ذلك ماتراه فى المسجد الحسينى بعد العصر فى رمضان وبالجملة فمحصول تلك
الكتب هو محصول خطب المنابر وان كان بعض أهل تلك الصناعة وهم قليل
كانوا من الفطنة والذكاء وبراعة المنطق وبلاغة العبارة بمكان رفيع فان
أكثرهم القصاص الجهلة الذين غاية أمر الواحد منهم ان يلفق أحاديث يضعها
أو وضعها غيره يفرح بها نفوس العامة بما يذكر من كثرة الثواب مع قلة العمل وما
يهون من أمر المعصية حتى يكون ذلك بمنزلة التحريض على ارتكاب الشهوات
والاسترسال مع الاهواء وطرح المبالاة اعتمادا على ماركزوه فى نفوسهم
وشغلوا به عقولهم من كثرة أسباب المغفرة وسعة الرحمة وعظم العفو الى غير
ذلك لايتكلمون فى سواه حتى صار سببا قويا فى خمود الطباع واستحكام
الغفلة والانصراف عن تذكر معنى الاجتماع الانسانى وتعقل ضرورة التعاون
والتفكر فى احكام أسباب التعارف والتواصل ومحاورة الناس بعضهم بعضا
فيما يوجب عز الامة وسعادتها وسرور آحادها وابتهاجهم بالتناصف وافضال
الاقوياء على الضعفاء من ثمار قواهم فلا يتلاقون الاوصدورهم منشرحة
وقلوبهم فرحة وثغورهم باسمة ووجوههم منبسطة قد أمن بعضهم غوائل
بعض وتحققوا السلامة من مقاصد السوء والتمكر باستلاب الاموال وقهر
النفوس وتسخير الاقوياء الضعفاء فيما يختصون به من اللذات ويحافظون
عليه بجدران الصخور وأبواب الحديد حتى كان ذلك مولدا فى الناس كثيرا
من خسيس الطباع التى تميل باصحابها نحو الاكتساب بجهة السرقة والسؤال
بالضراعة والترامى على أعتاب المكثرين وأنت لذلك عارف واليه ناظر
لاتجهل تلك الطوائف الكاسبة بهذه الوجوه الرديئة واسوأها حالا وأخسها
عملا وأبغضها مترددا هؤلاء الذين أطفؤا أنوار عقولهم الخلقية وأخمدوا لهب
قواهم الطبيعية وعطلوا جوارح أبدانهم بما يملؤن به رؤسهم من أتربة
خرافات تخرج بهم من نوع الحيوان لايجوزان أقول من نوع الانسان يؤول
أمرهم الى الاحتياج وطلب المعاش بابدانهم وأبدان انقضت عنهم وشغلوا
بها كثيرا من الفراغ أى أبدانهم وأبدان نسلهم الى أن يطرحوا نفوسهم بين
أيدى أهل المكاسب بطرق الاعمال المتعبة والمحاولات الشاقة يذكرونهم ثواب
الصدقات ويلحفون فى السؤال حتى تمل ذلك نفوسهم ويضعف يقينهم وتقسو
قلوبهم ويلتمسوا وجوها للطعن على تلك الطائفة لايفرقون بين أهل النزاهة
منهم وغيرهم فيكون القدح عاما والاحتقار شاملا * وللقصاص حكايات

من بعد هؤلاء خلف اتخذوا الجدل شرعة والمنازعة سبيلا وخرج بهم ذلك الى سباب ومشاتمة واحتقار قوم قوما ورجع بهم الى القدح فى السلف وصار الاختلاف بين أهل المذاهب منشأ العداوة ان لم تكن فوق العداوة بين أهل الاديان فليست دونها فكثيرا ما كانت سببا لتجريد السيوف يقاتل بعضهم بعضا حتى دخل بينهم الحكام لاصلاحهم وكانوا هم الاولى بذلك وهو حقهم الذى ما كان ينبغى أن يمكنوا منه غيرهم وصاروا احزابا ينحاز كل حزب منهم الى ملك من ملوك النواحى وصارت المدائن بمنزلة المعاقل والحصون حتى دخل أهلها تحت نظر السياسة وقهرها وبدلت سيوف المنابر بقطع خشب فى صورتها يتكئ عليها الخطباء حال صعودهم وهبوطهم وآل أمر العلماء الى كونهم طائفة من الطوائف المربوبة المسوسة تلحظ حركاتهم ارصاد الحكومة وتأخذهم عيونها امنعا للتعدى بعضهم على بعض وحسما لمادة الشر بينهم ولعبت بهم أهواء الملوك الجائرة الجهلة من التتر والديلم وغيرهم ونشأ من ذلك مفاسد عظيمة منها تمكن كثير من الجهلة الذين أمضوا صدور أعمارهم فى اللهو واللعب دون فكرة فى تحصيل سبب من أسباب المعيشة حتى دهمهم وقت الاحتياج لذلك من الانتساب الى العلم وأهله فصنفوا كتبا ملؤها أحاديث كاذبة وحكايات غير معقوله وروجوها على العامة وأكلوا بها الخبز وخلطوا ما ليس من الدين به فأى مفسدة أكبر من ذلك وليس له سبب الا افتراق العلماء واهمالهم أمر الرعاية ولم يزل الاختلاف الذى هو منشأ تلك العداوة مستمرا يخفيه الضعف وتظهره القوة كما ترى فهل يسوغ لك بعد معرفة هذا ان تقول انها العلماء ❊ وان قلت انها الوعاظ قلت هذا أقرب فان الوعاظة كانت حرفة شائعة وصناعة فاشية كان أهلها يتنافسونها وكثير منهم أخذ عليها الرواتب من بيوت الاموال وأكثرهم كان يلم بها القطع من العامة الذين يحضرون مجالسهم فكان الواعظ اذا فرغ من كلامه الذى أعده لذلك المجلس بسط منديله فطرح فيه كل ما سمحت به نفسه (ومن مضحكات الوقائع فى ذلك) ان واعظا دخل قرية فجلس فى مسجدها للوعظ فلما فرغ وجد الناس يذهبون ويجيئون هذا بشئ من الصوف وهذا بشئ من القرون حتى اجتمع بين يديه من تلك الاصناف ما لا يحمله الا عدة احمرة فقال الواعظ اما يباع هذا فان ثمنه أخف محملا فقالوا لو كان عندنا نقد لاعطيناك منه وانما هذه أموالنا وليس لنا متاع سواها فخرج من قريتهم صفر اليدين وصنفت لاجل الوعاظة كتب لقبوها بالمجالس تشتمل على تفسير آيات من آيات الترغيب والترهيب وبعض

احاديث

أحاديث صحيحة وغير صحيحة و بعض أشعار وحكايات من ذلك الوادى وأنموذج ذلك ماتراه فى المسجد الحسينى بعد العصر فى رمضان وبالجملة فمحصول تلك الكتب هو محصول خطب المنابر وان كان بعض أهل تلك الصناعة وهم قليل كانوا من الفطنة والذكاء وبراعة المنطق وبلاغة العبارة بمكان رفيع فان أكثرهم القصاص الجهلة الذين غاية أمر الواحد منهم ان يلفق أحاديث يضعها أو وضعها غيره يفرح بها نفوس العامة بما يذكر من كثرة الثواب مع قلة العمل وما يهون من أمر المعصية حتى يكون ذلك بمنزلة التحريض على ارتكاب الشهوات والاسترسال مع الاهواء وطرح المبالاة اعتمادا على ماركزوه فى نفوسهم وشغلوا به عقولهم من كثرة أسباب المغفرة وسعة الرحمة وعظم العفو الى غير ذلك لا يتكلمون فى سواه حتى صار سببا قويا فى خمود الطباع واستحكام الغفلة والانصراف عن تذكر معنى الاجتماع الانسانى وتعقل ضرورة التعاون والتفكر فى احكام أسباب التعارف والتواصل ومحاورة الناس بعضهم بعضا فيما يوجب عز الامة وسعادتها وسرور آحادها وابتهاجهم بالتناصف وافضال الاقوياء على الضعفاء من ثمار قواهم فلا يتلاقون الا وصدورهم منشرحة وقلوبهم فرحة وثغورهم باسمة ووجوههم منبسطة قد أمن بعضهم غوائل بعض وتحققوا السلامة من مقاصد السوء والتماكر باستلاب الاموال وقهر النفوس وتسخير الاقوياء الضعفاء فيما يختصون به من اللذات ويحافظون عليه بجدران الصخور وأبواب الحديد حتى كان ذلك مولدا فى الناس كثيرا من خسيس الطباع التى تميل باصحابها نحو الاكتساب بجهة السرقة والسؤال بالضراعة والترامى على أعتاب المكثرين وأنت لذلك عارف واليه ناظر لا تجهل تلك الطوائف الكاسبة بهذه الوجوه الرديئة واسوأها حالا وأخسها عملا وأبغضها مترددا هؤلاء الذين أطفؤا أنوار عقولهم الخلقية وأخمدوا لهب قواهم الطبيعية وعطلوا جوارح أبدانهم بما يملؤن به رؤسهم من أتربة خرافات تخرج بهم من نوع الحيوان لا يجوزان أقول من نوع الانسان يؤول أمرهم الى الاحتياج وطلب المعاش بابدانهم وأبدان انتفضت عنهم وشغلوا بها كثيرا من الفراغ أى أبدانهم وأبدان نسلهم الى أن يطرحوا نفوسهم بين أيدى أهل المكاسب بطرق الاعمال المتعبة والمحاولات الشاقة يذكرونهم ثواب الصدقات ويلحفون فى السؤال حتى تمل ذلك نفوسهم و يضعف يقينهم وتقسو قلوبهم ويلتمسوا وجوها للطعن على تلك الطائفة لا يفرقون بين أهل النزاهة منهم وغيرهم فيكون القدح عاما والاحتقار شاملا * وللقصاص حكايات

تضمنتها كتب أهل النقد على سوء اعمال الناس منها التعرف الحال التى كان عليها الامر فى العصور الخالية (يحكى) ان الامام عامر الشعبى دخل يوما مسجدا فوجد قصاصا أحدقت به العامة وهو يقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان لله ثلاثة اصوار فقال الشعبى انما هو صور واحد فغضب القصاص ونظر الى من حوله وقال ألا ترون الى هذا الجاهل أقول قال رسول الله وهو يقول من عند نفسه فهاجت العامة وهمت ان توقع بالشعبى فأخرج الحال مخرج الهزل وضاحك القوم وقال دعونى ان لله مائة صور وكان همه الفرار منهم والنجاة من شرهم (ويحكى) ان الامامين أحمد بن حنبل و يحيى بن معين دخلا يصليان فى مسجد فلما فرغا من صلاتهما جلسا يتذاكران اذا بقصاص جلس وسط المسجد وتحلقت حوله العامة فاخرج من كمه كراسة وأخذ يقرأ حدثنا أحمد بن حنبل و يحيى بن معين عن فلان عن فلان عن النبى صلى الله عليه وسلم من قال كيت وكيت خلق الله من حروف كلمه ملائكة كل ملك له كذا كذا اجنحا والسنة فتغمس فى نهر ثم تنتفض فيخلق من كل قطرة ملك واسترسل فى كلام طويل غايته ان تلك الملائكة بتلك الاجنحة والالسنة يستغفرون و يترحمون لقائل تلك الكلمة وفى اثناء استماع الشيخين لذلك الكلام يتلون أحمد بن حنبل غيظا وضيق صدر من كثرة الكذب على رسول الله ونسبته له ولصاحبه ويقول ليحيى قم بنا لئلا يخسف بنا و يحيى يسكنه حتى يفرغ القصاص و يسألاه عن كذب تلك الرواية فلما فرغ استحضراه وقال له يحيى أنا يحيى وهذا أحمد فتى رويت عناهذا فقال القصاص أنتما يحيى وأحمد البغداديان مازلت أسمع بحمقكما حتى رأيتهما اتظنان ان ليس يحيى واحمد غيركما انى رويت عن سبعة عشر يحيى بن معين وسبعة عشر احمد بن حنبل وانصرف عنهما الى غير ذلك مما انطوت عليه كتب التاريخ (ومن النوادر) التى يضحك لها سامع و يعتبر بها آخران شيخا مسنا من الوعظة كان يستر نور شيبته بخضاب السواد فاتفق يوما أن بدأ كلامه بقوله لا اله الا الله كم بين الحق والباطل وكان بعض الظرفاء واقفا فى طرف من اطراف الحلقة فقال نصف ليمونة يامولانا فضحك من عرف ان عصارة الليمون تفسخ الخضاب و بهت الآخرون ودار الكلام بينهم فى الاستفهام عن هذا الجواب وافهامه وعلى تلك الحال انحل مجلسه ذلك اليوم ووجهة الاعتبار فيه تضمنه ان من نصب نفسه لوظيفة الهدى ودعاء الناس الى الخير يجب أن يكون أبعدهم من التصنع واحرصهم على الكمال فان ادنى هفوة منه تسقط اعتباره وتسهل التهاون به فلا يكون لكلامه تأثير فى القلوب

ويصير مجالسه مسلاة يتلهى بحضوره فكثيرا ما كانت تلك المجالس مواعد لاهل الخلاعات والمجون يتلاقى بها الفتيان والفتيات والغلمان والفساق ولبعض الشعراء وقد فرض محاورة جرت بينه وبين حسناء

قالت أراك خضبت الشيب قلت لها * سترته عنك يا سمعى ويا بصرى
فقهقهت ثم قالت ان ذا عجب * تكاثر الغش حتى صار فى الشعر

فانت تراه جعل الخضاب نوعا من الغش وفى الحديث الشريف من غشنا فليس منا فكما ان المرأة يحرم عليها ان تتصنع الحسن بأن تصل شعرها بشعر تلتقطه من بلاط الحمامات ليظهر كونها فرعاء وان تتنمص اى تزيل ما على وجهها من نبات الشعر تظهر كونها نقية الخدود ودقيقة الحواجب وان تبرد ثنايا ها التصغر أسنانها او يظهر كونها فلجاء وفى الحديث لعن الله الواصلات والنامصات والمتنمصات والمتفلجات المغيرات خلق الله لما فى ذلك التغيير من الغش وايقاع الرجال فى الغرور وادخالهم فى النكد لكثرة ما يصرفون رغبة فى جمال يتبين أنه كذب مصنوع كما قيل

عجوز تمنت ان تكون صبية * وقد يبس الجنبان واحدودب الظهر
تروح الى العطار تبغى شبابها * وهل يصلح العطار ما أفسد الدهر
وما غرنى الا خضاب بكفها * وكحل بعينها وأثوابها الصفر
بنيت بها قبل المحاق بليلة * فكان محاقا كله ذلك الشهر

بنى بالمرأة دخل بها والمحاق آخر ليلة من الشهر أى فذلك الشهر الذى أقبل واقامته معه كان كله اسود مظلما ثم استنارت الدنيا فى وجهه حيث بت طلاقها فلو لم يكن طلاق لاستمرت المصيبة وتضاعفت الانكاد والتحرى غير نافع مادام الغش وصنعة الجمال بتحمير الخدود ونفخة الوجه وتسويد العيون وترجيج الحواجب وقرنها وغير ذلك يحرم على الرجال الغش بتصنع الشباب فان الاساس فى حسن حال الامة انما هو الالفة والوفاق وأهم ذلك ما يجب ان يكون بين الرجال والنساء فان اكثر ما تراه يشغل بيت القاضى انما هو خصومات هذين الفريقين وأى ضرر ينشأ من اختلافهما فعاقبة التغرير الواقع بينهما فجور النساء وفساد الطبائع تعرف ذلك باختبار الاحوال وأما ماوقع من أمر النبى صلى الله عليه وسلم بتغيير الشيب فخضب أصحابه بالحمرة والسواد فقد أجاب عنه أمير المؤمنين على كرم الله وجهه حيث سأله فيه سائل فقال ذلك والدين قل فأما وقد ضرب الدين بجرانه فامرؤ ونفسه يعنى ان المسلمين كانوا قليلا واعداؤهم كثيرا فاذا رأوهم مع القلة شيبا ضعافا طمعوا

فيهم واستهانوابهم فامر وابأظهار الشباب والقوة ليملأ الرعب قلوب الاعداء
ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم الحرب خدعه وقال نصرت بالرعب فلما
كثر المسلمون لم يكن احتياج لذلك وكان حكمه بحسب القصد فيه فاذا كان
للغش كان حراما واذا كان لارهاب الاعداء كان مندوبا وفى غير ذلك مكروها
أومباحا والذى ينبغى ان الناس يظهرون بأحوالهم الطبيعية وهيئاتهم الخلقية
حتى يتبين الشاب شابا والاشيب أشيب والفتاة فتاة والشمطاء شمطاء والجميل
جميلا والدميم دميما ليكون التلاقى والاجتماع عن رضى وطيب نفس ولكل
ساقطة لاقطة * فانت ترى ان هذه الفرق التى يميل بك الخيال الى ان تظن ان
تلك الامة المأمور بكونها وعليها يدور معظم أمر الاصلاح تتحقق فى واحدة منها
لا يسوغ لك بعد ما أشرنا اليه وصرحنا به ان تدعى ذلك بل أنت سابق فى الحكم
الجازم بان تلك الامة لم تكن وهى غير كائنة ويجب ان تكون ولا يأس من الخير
مع قوله صلى الله عليه وسلم أمتى كالمطر لا يدرى أوله خير أم آخره وكنت أرى
ان هذه الصحائف المعدة لنقل الاخبار ونص حوادث الليل والنهار ما سر
اظهار الفرح به وتعريف قدر المنة فيه ولاذاعة الثناء على مصادره ودعا
الناس لامثاله وماهو خير منه وما أساء ابانة للتبرم به والتأسف من حصوله
وتعريف قدر الضرر فيه واشاعة ذم فاعليه وتنفير الناس عن أشباهه قد قام
أصحابها فى الامة بحسب المكان بهذا الامر ودرجوا مدارج الفلاح لوأنهم
سلكوا بها نحو غايتها المقصودة منها وهى كونها أحد أركان التربية الثلاثة
التى هى المدارس والمجالس والصحائف أما المدارس فلتعليم الفنون الجيدة
الآثار البينة المنافع وأما المجالس فلتعليم آداب المعاشرة وجهات حسن
المعاملة فانها تجمع الشيوخ والكهول والشبان ويدور بينهم الحديث عن
الاحوال وماجريات الايام وما كان من الحيل والآراء فى تسهيل المصاعب
وازالة الاشكال يتحدث الشيوخ والكهول ويتناقشون ويعقل عنهم
الشبان المنصتون اليهم المستمعون منهم وأما الصحائف فلتعريف بحوادث
الاوقات والتنبيه على ماوافق المصلحة منها ومالم يوافق وعلى اختلاف ذلك
بحسب الازمنة والامكنة وجهات التعيش فكان يجب عليهم ان يميلوا
بكلامهم عن طبقته من البلاغة التى قصرته على فهم أخص الخاصه الى مابه
يمكن ان تصل اليه افهام الطبقة الاولى والثانية من العامة فانهم هم الامة
المقصودة بالخطاب المدلولة على المراشد المصروفة عن السكون الى دعة الغفلة
أو الرضا باتعابها والصبر على مشاقها وكان يجب عليهم أن لا يدخلوا دون

استصباح

استصباح مداخل مظلمة تمكن منهم عمل الحيرة وتهوى بهم فى تيه العطلة وكان يجب عليهم أن يتجنبوا جميع المنفرات المذهبة لبهاء الحديث واعتباره منها المبادرة باثبات الاخبار الكاذبة وأضرها ما كان عن اعمال السياسة فان قارئ الصحائف تنبعث همته ليتكلم بها تسكينا للخواطر وتفريحا للقلوب وتجديد النشاط الناس فى اجادة أعمالهم وبعثا لافكارهم فى ذلك وتقرير ماينبغى تقريره وتغيير مايجب تغييره فاذا تكلم بها فلقى رداعنيفا أوغير عنيف فلا أراك تستقل فتور همته وانفلال حده ومنها المبادرة بالطعن اعتمادا على خبر واحد ربما حملته الاغراض الخاصة على اجتراء الافتراء ومنها التفلسف البارد كما تضمنته مقالات قلد بها بعضا بعضا من تخيل أولية للانسان كان فيها يسكن الآجام ويرتع كما ترتع البهائم واستحسان تلك الحال وتسميتها حرية ثم انه كما يزعمون اختار لنفسه ان يتقيد بشرائع وقوانين وان يتحمل ثقل أغلال التمدن والحضارة وأطيلت تلك المقالات اطالة تخرج بالقارئ عن حد السآمة والملل الى انفساخ عزيمة الاقبال على تلك الصحائف ومنها كثرة القول فى فساد الاحوال دون تحقيق جهات الفساد والتنبيه على جهات الصلاح لا بتلك الاقوال العمومية بل بتفصيل الجزئيات وتقريب العبارة عنها من افهام الذين أرادوا نصيحتهم وارشادهم الى وجوه منافعهم ومن ذلك يتبين ان ليس القائمون بها لها باهل وكم بين أهل مصر من ناطق لو وجد للقول مكانا ولكثرة الكلام فائدة ولكنهم ينظرون بالامور أحيانها فاذا كثر أهل المعرفة بتربية المدارس والمكاتب التربية الصحيحة المنظورة لذوى العقول النيرة والآراء السديدة وأخذوا بازمة ادارة بلادهم وجدوا للقول فهمة فهنالك تنطلق الالسنة ويحسن ان تنشر الصحائف تذكيرا للساهى وتنبيها للغافل ومضاء لعزائم الهمم العالية والعزائم الصادقة فالتأديب ثم التأنيب والتعريف ثم التعنيف والافهل يحسن ان تلقى شخصا لم تعلمه السباحة فى بحر تأمره باجازته عرضا عريضا وانما الواجب الآن الاشتغال بالتفكر فى اجادة التربية وتمكين غاياتها من نفوس المتعلمين فعلى أهل الذكاء والفطنة وصحة الافهام وسعة الاطلاع ان يتذاكروا فيما عليه أمر معلميهم وقضاتهم وأكابر قراهم ثم يجتهدوا فى تعيين طرق يسلوكها ينتهون الى غاية صلاح الاحوال وتأليف الرسائل فى ذلك لتكون فى مواد التعليم بدل تلك الصحائف التى لم يجئ وقتها بعد

أما العامي منه فهو تلك القطعة من الارض التي تعمرها الامة وأما الخاصي فهو المسكن فالروح وطن لكونه مسكن الادراكات والبدن وطن لكونه مسكن الروح والثياب وطن لكونها مسكن البدن والدار والدرب والمدينة والقطر والارض والعالم كلها أوطان لكونها مساكن ولكل حق يجب ان تعرفه وتحرص على ادامة ملاحظته فحق الروح صيانته عن ادراكات غير نافعة وبالاولى عن هذه الادراكات الضارة التى تراها منتشرة انتشار العرفى الابل الجرب فان فى الادراكات النافعة كفاية لعمارة ذلك المسكن على أن ليس فى الامكان تحصيل سائرها الواحد ولهذا القصور توزعتها الارواح فهذا الفن وتوابعه وذلك لفن آخر ومتعلقاته فعليك استعمال عقلك فى تمييز النافع لتقبله وغير النافع لترده أولا تشتغل بغير النافع أصلا حيث وضحت لك المنفعة كما قيل قديما

لما نافع يسعى اللبيب فلا تكن ❊ لشئ بعيد نفعه الدهر ساعيا

ومرشدك الى ذلك الحافظ لك من الزيغ والزلل فيه هم عقلاء العلماء الذين ترى فى ظاهر شمائلهم من حسن السمت وجلال الوقار وانضباط الاعمال والتصون عما يوجب ادنى نفور منهم فلا ينطقون الا بالحكمة ولا يعملون الا وفق المصلحة ما يدلك على فضل أخلاقهم وان العلم قد أفادهم تهذب نفوسهم ومزج الادب وحب الخير بطباعهم وانهم عرفوا حقيقة الدين والتزموا حدوده فظهروا فى الناس مظاهر الانبياء ان لم يوح اليهم فقد بلغهم وحى الله الى رسله وقد أمروا بحفظه والحرص على وعيه ليبلغوه الناس حتى يعم الجميع الادب ويظهر فيهم تمام الاستقامة ذاكرين قوله صلى الله عليه وسلم شارحين له مفصلين ما أراد به تعليما وتذكيرا ورعاية ضبط بعثت لأتمم مكارم الاخلاق وبيانه أنه عليه الصلاة والسلام بعث وفى الناس أخلاق جيدة وأخلاق ذميمة وعادات حسنة وعادات سيئة وعقائد حقة وعقائد باطلة فامر بتقرير الناس على كريم الاخلاق وجميل العادات والثناء عليها وبيان المنافع فيها وتغيير اضدادها والانكار عليها ومعالجة الاصرار والتصلب والعناد بالتزامها وطاعة الاهواء فى ارتكابها وما ورد من انه صلى الله عليه وسلم مر يوما على مجلس قوم يذكرون الله ويدعونه فاجتازهم ومر بمجلس آخر يتذاكرون فيه العلم بين سائل ومجيب ومعلم ومتعلم ومسترشد ومرشد ومتأدب ومؤدب فقال أولئك قوم يدعون الله بين ان يجيبهم وان لا يجيبهم وهؤلاء قوم يعلم عالمهم جاهلهم وفى كل من المجلسين فضل وهذا أفضل وانما بعثت معلما وجلس

معهم وقوله صلى الله عليه وسلم المؤمن القوى خير وأحب الى الله من المؤمن الضعيف وفى كل خير احرص على ماينفعك واستعن بالله ولا تعجز فاذا أصابك شئ فلا تقل لو انى فعلت كذا وكذا كان كذا ولكن قل قدر الله وما شاء فعل فان لو تفتح عمل الشيطان فجعل الاصل الذى يجب الحرص عليه انما هو المنفعة ومع تعميم الثناء على المؤمنين بين فضل أقويائهم الذين يمكنهم مباشرة الشاق من الاعمال واذاعة أحسن الاقوال وأفاد بقوله فاذا أصابك الخ انه يجب على الانسان ان تتصل أعماله التى يعود عليه نفعها فلا يصرف من اوقاته وقتا فى التأسف والتحسر على فائت بل غاية ماينبغى له ان يعرف السبب ويشكر الله على ماتجدد له من علم به يحترس من الوقوع فى مثل ما أصابه تحققا بقوله صلى الله عليه وسلم لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين وفى ذلك دوام سروره وكبت عدوه الشيطان الذى اجتهاده وبذل همته فى التماس طرق خفية ومكايد مستورة ينال بها ماآربه من تكدير الانسان وتشويش افكاره واضاعة أوقاته بتلك الوساوس التى لا ترد فائتا ولا تصلح فاسدا فليس محظورا على من مشى حافيا فدخلت فى رجله شوكة ان يقول لو وقيت رجلى والبست نعلى ما ألمت بالشوكة كيف ومن المحكى على لسانه ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير ومامسنى السوء وقد قال لو استقبلت من أمرى ما استدبرت ماسقت الهدى فى حجة حجها فساق الهدى من ميقات المدينة ذى الحليفة وصار بها محرما فلما رأى المسلمين بمكة حلالا اذ كانوا أحرموا بعمرة متمتعين وتحللوا منها ثم أحرموا عند الشروع فى الاعمال قال ذلك تسكينا لخواطرهم وتطييبا لنفوسهم وانما المحظور تمكين الانسان عدوه من عمله فيه بما يقذف فى قلبه من سيئ الخطرات ❊ وكأنى بقارئ هذا الموضع يظن من حديث المجلسين السالف ان مجلس الذكر فيه كان مثل هذه المجالس التى يراها وصمة فى قيام أهل الدين بامره وشناعة لست أدرى كيف سكت أهل المعرفة والدراية عليها عند ابتدائها ثم كيف تركوها تثبت هذا الثبوت وتقوى تلك القوة أرأوها عبادة وهؤلاء الاسافل من الغوغاء يلعبون فيها باسم الله ويجعلون اختلاف أصواتهم عند النطق به ضبطا لالحان الواقفين يغنون بألفاظ يذكر فيها الخدود والخصور والارداف وعليها يتراقصون ويفعلون تلك الافاعيل ويرحم الله القائل

وما أسكر القوم حب الاله ❊ ولكنهم سكروا للقصع
كذاك الحمير اذا أخصبت ❊ يقمصها ريها والشبع

والقائل

أقال الله حين عشقتموه * كلوا أكل البهائم وارقصوا لي

حاشا الله ان يكون ذلك عبادة ولئن كان فمجلس آلات الملاهي أحسن عبادة وأجمل طريقة واين هذا من حال أصحابه صلى الله عليه وسلم حيث كانوا يجلسون كانما على رؤسهم الطير سكون جوارح وقرار أفئدة وحسن اصغاء لما يلقى عليهم من الحكم والآداب والتعاليم النافعة لهم في دنياهم وأخراهم فكان من الواجب على ولاة الامور ان لا تحدث في الاسلام امثال هذه البدع التي يحسبها الجهال من فروع الدين فيدخل الخلل على احترامهم له واعتبارهم اياه حيث يتعقلون ويستبصرون عند أوان ذلك فن الجهال من تكون فطنته جيدة بحيث يهتدي بفكر نفسه الى ما ينفع وينبغي ان يكون دينا متبعا وما لا ينفع وينبغي ان يكون أمرا مجتنبا فهم على ماهم عليه من احتقار ذلك في نفوسهم وطويات اسرارهم وان كان الخوف يمنعهم من مشافهة ذوي المكر الذين اتخذوا تلك الاعمال أشراكا لصيد معايشهم ومكنوها في نفوس أهل الغفلة الذين ينقادون مع كل قائد ولا يعرفون وجوه الحيل فهم ورؤساؤهم بلية على العقلاء المتألمين بما يخامر نفوسهم وتنكره عقولهم من ذلك العمل وامثاله ولكن حيث تولى رياسة أمة الاسلام أولئك الاعاجم العجم وهم لا يعرفون الدين الا من جهة جملته من الرعايا وكثر فيما بينهم أذكياء المكرة وفطناء المحتالين فعجز العارفون بحقيقة الدين عن ضبط أولئك الملوك وغلب عليهم تلبيس أولئك المكرة المحتالين حتى استعانوا بهم على اذاعة ما نرجو الله سبحانه وتعالى ان يقيض لمحوه وتطهير الامة من باطله من يقوي عزيمته في ذلك وتحفه عنايته من خلقه انه على ما يشاء قدير * وحق البدن ان يعرف كونه حيا حياة يمكن ان تزول كل وقت بفعله وبفعل غيره وان لزوالها أسبابا كثيرة وكونه يصح ويمرض كذلك فيحاول بقاء حياته وحفظها من أسباب زوالها وبقاء صحته وصيانتها من أسباب نقصانها واستكمالها اذا انتقصت وذلك بتنظيف ظاهره من الادران وتنقية باطنه من الفضلات ولذلك شرعت أنواع الطهارة وبرياضته لتقوية نشاطه بالحركة وتلك من ثمرات الصلاة خصوصا للمترفين الذين لا يباشرون بابدانهم عملا يوجب حركة جميع اعضائهم وبوقايته من العوارض الخارجة بملابس مناسبة لطبائع الازمنة كالابيض في الصيف لطرده الحرارة والاسود في الشتاء لتشربه اياها وباستطابة الاغذية واصلاحها لتعويض ما فني اذ وضع البدن على الافناء والتعويض أبدا فهو لا يزال يخرج

منه مالو بقي فيه لاهلكه فالبعض يخرج من المنافذ المعروفة والبعض من جميع مسام البدن التي تتسع بالصيف لكثرة الافراز وتنقبض وتضيق بالشتاء لتكثير مادة النماء وخروجها بصورة أبخرة غير مرئية وذلك مستمر وأغلظه ما يبقى على ظاهر البدن لا يغير لونه كثير تغير ولا يمنع الاحساس كثير منع فاذا جمع منه مقدار بواسطة كيس الحمام مثلا ظهر جسما اسود له رائحة ومن لطف الله ان جعل الجوع والعطش منبهين على احتياج البدن الى تعويض ما فني منه فيعطيه كفايته من الطعام والشراب عند صدق المنبه من ذينك المنبهين فقد يكذبان كالعطش الذي يحصل عقب الفراغ من الطعام أو بعده بقليل و يظهر شديدا ولا يلبث ان يزول فالشرب عنده مضر والعطش الصادق يجيء بخفة متفشيا غير منضبط وقال الاطباء انه يكون بعد ساعة للصفراوي والدموي وبعد ساعتين أو أكثر لغيرهما حسب شدة الحرارة المبخرة وضعفها وكالجوع الذي يحصل عقب الشرب ولذلك علوم وأعمال كثيرة جدا لا يمكن للواحد أن يستقل بعشر معشارها ولذلك صنفت العلوم والاعمال وتوزعها الناس ضرورة فصاروا طوائف كل طائفة اشتغلت بصنف من العلم والعمل تصغر أو تكبر على حسب الكفاية لذلك العلم وذلك العمل فنشأ من هذا أنه يجب عليك أيها الناشئ السالك سبيل المنافع التي ينبغي لك ان تديم ملاحظة انها غايات الاعمال فكل عمل ليست غايته منفعة يجب احترازك منه وصيانة وقتك من الاضاعة فيه ان تعتبر تلك الطوائف وضرورتها لتحترمها احترامك لحكمة الله تعالى في ايجادها فطائفة الاساكفة والكناسين ليستا في استحقاق الاحترام والاعتبار دون بقية الطوائف كائنة ما كانت فلا شرف من هذه الجهة لطائفة على طائفة اذ كان الكل ضروريا وبه حصة من منافع الامة فلا أراك تفعل ما يفعل السفهاء من التشاتم بحرفة الحياكة أو الكناسة أو غيرهما من الحرف التي تطرحها سخافة انظارهم في مطارح الخسة واذا تحققت ذلك لم يكن الاولى بسقوط الاحترام وعدم الاعتبار سوى طائفة أخرجتها من الامة بل من نوع الانسان خستها وضعة نفوسها وقصور أفكارها ليس لهم من الدنيا سوى التي يتهامسون باغتياب بعضهم بعضا مع ما يتلون كأنهم لمعناه لا يعقلون يطرحون رذال آمالهم بين أهل الدنيا فترتد اليهم بالخيبة وطول الاسف لا يزالون في خوف وفزع والناس لهم في احتقار واهانة حظ الواحد منهم ان يرد عليه أمير سلاما أو يسمع له مع ما يضمره من بغضه وكراهته كلا ما نفرت منهم الخاصة لنزولهم طبقات عن صحة افهامها ولا تألفهم العامة

لتأذيها بهم وعدم انتفاعها بوجودهم من أصاب منهم بسبب من الاسباب
الرديئة شيأ من الدنيا فهو أول من ينطبق عليه قوله جل ذكره يتمتعون
ويأكلون كما تأكل الانعام غافلين عن معنى النعمة ذاهلين عن أسباب
حصولها كما هو حال البهائم * وحق الثياب تعهدها بالتنظيف كما شرع من
تطهيرها وقد ورد أكرموا الثياب بطيها والمبادرة برتق فتقها فقد قيل لا جديد
لمن ليس له خلق ومن حقها ان تعرف موادها التى تتخذ منها وهذا يوجب
عليك الاهتمام وبذل الجهود والعناية فى تربية أصولها والحرص على كثرتها
واحترام الطوائف المرصدين للقيام عليها والصناعة فيها وتلك المواد من
ثلاثة نباتات وحيوانين الحرير من الدود الذى غذاؤه ورق الفرصاد وهو
التوت والصوف من الغنم والقطن والتيل والكتان فكم لتلك الاشياء من
المنافع وكم تستحق من العناية وأهل بلادنا غير قائمين بخدمتها وتربيتها حق
القيام * فدود الحرير غير موجود فيهم مع امكان تربيته وسهولتها عليهم وقد
كان موجودا مشهود النجاح كما نقل فى أخبار اسلافهم وشوهد على قلته فى
العهود القريبة من وقتنا هذا * والغنم صارت بحيث يسوغ لك ان تقول انها
مفقودة من البلاد والا فما بال هذه الجيف التى تساق الينا مخيلة الحياة من
تلك النواحى الشاسعة نصرف اليها معظم اكسابنا التى نكابد المشاق فى
تحصيلها على تفاهتها وحقارة موقعها من حاجاتنا فترى الكاتب المسكين
مثلا منكفئا بياض نهاره على كتابة أوراق يطيرها الى جهات أعمال مفيدة أو
غير مفيدة طبق أوامر صادرة عن روية أو دون روية والمعلم الذى أنفق أنفس
عمره فى تعلم بعض الفنون كيفما تعلم يكابد تفهيم ستة دروس مثلا يوميا
وعلى هاتين الطائفتين قياس بقية المحترفين اذا انصرف الواحد منهم الى منزله
فوضعوا بين يديه عشاءه فما أظن ان أحدا يتصور حاله حين ذلك سواء اذ يرى
ما تنفر منه نفسه وتلتمس الحيلة فى اساغته ويتناول شئ من الخللات أو
المملحات وغالبا يترك طعامه الذى صرف فيه ما صرف الى الاجتزاء والاكتفاء
بشئ من تلك الاصناف الرديئة التغذية ان لم نقل انها ليست فى شئ من الغذاء
أو هى مضرة تنشأ عنها أمراض ان لم تكن محسوسة فى الحال فلا بد ان تصير
محسوسة يوما ما مع ان فى أصواف الغنم المصرية ما يفوق الحرير نضارة منظر
ونعومة ملمس ولين مجس اذا أحسنت رعايتها وأجيدت تربيتها اتباعا لما تريه
الطبيعة وتطلع عليه من الاختلاف بحسب اختلاف الاوقات فالغنم المولودة
فى أوائل فصل الربيع أو قبله بقليل اذا ربيت فى الظل وصينت من الاغبرة

والاوساخ

والاوساخ سيما فى النواحى الشمالية لم يكن على وجه الارض أجود من صوفها وقد رأينا من صناعة أهل البلاد فى تلك الاصواف ما يبعث أهل الفكر والنظر فى المصالح العامة ومنافع الامة على الاجتهاد فى تقوية تلك الصناعة والاحتفال باهلها حتى يكثروا وتعظم ثمرات من يوجد فيهم من الاذكياء المهرة الذين يحسنون تأهيل الغريب واظهار العجيب من أصناف تلك المصنوعات وليس لقلة الغنم فى الديار المصرية الآن سبب الا أمران * الاول ان معظم أراضى الزراعة الجيدة صارت تحت أيدى ناس ليس لهم فكر الا فيما يرد عليهم من أثمان مزروعات يكابد ابناتها وخدمتها مسخرون يعطون من الاقوات ما يمسك اعضاءهم للعمل فهمهم جمع الذهب والفضة واحتيازهما يرون انهم أهلها دون غيرهم ثم مصارفها كما ترى فى شفوف لا تستر عورة ولا تدفئ مبرودا كاشغال السيماء ومرايا كبار تصف على الحيطان وكراسى عليها ألواح الرخام يوضع فوقها الاعطار ودهانات الشعور وأمثال ذلك من مصنوعات لا يعرفها أهل البلاد وفيما كانوا يعرفون ما هو أحسن منها وعلى فرض ان هذه الموجودات لا يماثلها شئ فى الحسن أفليس فى الامكان ان يعرف أهل بلادنا صناعتها ان لم يكن الحزم فى اطراح أكثرها * والامر الثانى انكسار خواطر الطبقة الاخيرة والوسطى وضيق صدورهم بثقل التكاليف وحرمانهم من المنافع حتى يرى الواحد منهم انصراف النهار وذهابه الى قاعته المحماة بالحطب الغنيمة الكبرى والنعمة العظمى * وأما الكتان فلما صار الزيت مستغنى عنه واشتغل النساء عن الغزل أو كسلن اكتفاء بثياب البفت وأقمشة القطن فقد قلت زراعته استراحة من اتعابها وما كان أجمل أنواع الاقمشة المتخذة من الكتان المصنوعة فى مثل أبيار ومحلة مرحوم ولا أقول انظر خطط المقريزى لتطلع على محاسن المنسوجات التى كانت تستعملها ملوك الفواطم وأمراؤهم وأهل عصرهم ومن قبلهم وبعدهم وتعرف شهرتها فى سائر الآفاق وما وصفوا به بلاد صنعتها من العمارة والجلالة وهى الآن خربة لم يبق الا أسماؤها فى الكتب كمدينة تنيس والفرما وقراهما وفى تلك النواحى كانت تصنع كسوة الكعبة الشريفة لعهد الرشيد فمن بعده وهى الآن تصنع بالقاهرة ولكن ليس يعرف صنعتها غير واحد على دقتها فانه يكتب فيها بخيوط النسج جميع الآيات التى يذكر فيها البيت والحج وفى كل ناحية من النوع الانسانى ما يمكن ان يقوم بتعليمه وحسن معاملته واذاقته حلاوة ثمرة اجتهاده حتى فى بلاد الزنج وهذه طرائف مصنوعاتهم فى أيدينا

وأما النيل فربما زرع بعض الناس منه خطا حول القطن ثم لا يستعمله الا حطبا وقليل من الناس يستعمله مع الليف فى حبال البهائم * وأما القطن فذلك صنف الزراعة وفيه الاجتهاد وصرف القوة ثم أين يذهب ولا أقول هذا انتقدا على أهل البلاد كما يفعله من ليس له خبرة ولا تردد فى الامور انهم يقومون بكل الصناعات و يستغنون عن سائر الجهات فان ذلك أمر غير ممكن فان اشغال الزراعة مستوفية جميع القوة فاذا صرف كثير منها نحو الصناعات ظهر تعطيل فى الزراعة ولكن أقول انه يجب تقليل الاحتياج بما هو متيسر وله أهل من الصناعات غير ان الافكار غير منصرفة اليه * وحق الدار اختيار مكان بنائها كما أرشد اليه قوله عليه الصلاة والسلام اذا بنيتم فارتفعوا يعنى انه يجب وضع البناء على مرتفع الارض لا على الوهاد فان ذلك أنقى للهواء وأبقى للبناء اذ يكون قد ارتفع عن مناقع المياه ومراسخ الرطوبات ومراسب المواد الغليظة المفسدة للهواء حتى يكون التنفس فيه مضرا بداخل البدن واحاطته بالجسم موجبة لخدره وانحلال قوته كما يكون ذلك مسرعا لفساد البناء وانحلاله ولذلك ترى البلاد فى الديار المصرية موضوعة على روابى الارض حتى قيل ان ديار مصر هى المرادة فى قوله تعالى وآويناهما الى ربوة ذات قرار ومعين وان السيدة مريم ولدت سيدنا عيسى فى أرض مصر على خلاف المشهور فى ذلك مستدلا بانها الارض ذات الروابى وهى مواضع الابنية والقرارات وهى المزارع وهذه الحكمة من حكم القدماء ورعايتها واجبة والمحافظة عليها لازمة لما فى تحققها من المنفعة كما سمعت وفى اضاعتها مضرة وأى مضرة وانا لنرى أهل البلاد الآن لما عرفوا مزية تسميد الارض أخذوا فى حفر ديارهم ونقل الاتربة القديمة التى هى السباخ والسماد الى أرض المزارع حتى صارت أرض الابنية مساوية لارض المزارع ان لم نقل انها صارت منحطة عنها ولما فرغ من بعض البلاد تلك الاتربة ورأوا ان لا نجاح للزراعة بدون السماد لحقهم كرب عظيم وأسف شديد وكان ذلك سببا لتفكرهم فى أمر السماد واشتغلوا بذلك كل أوقاتهم حيث يكونون وفى اثناء ذلك وجدوا ان مواقف البهائم فى الغيطان حيث تبول وتروث يجود زرعها ففهموا ان ذلك يقوم مقام الاتربة القديمة فصاروا يكنسون الاتربة من حريم البلاد وفضاء النواحى كل درب يأخذ مما أمامه ويفرشون تلك الاتربة تحت أرجل البهائم فاذا أصبحوا أخرجوه وحلاوعملوه كوما أو حفروا له حفرة عميقة ووضعوه فيها فاذا جاء وقت السماد يكون قد تحصل من ذلك مقدار فيضعونه فى الارض

ولكنهم لايجدون فيه منفعة الاتربة القديمة ولوان أهل المعرفة نظروا فى ذلك الامر حتى يقفوا على جهة المنفعة فى تسميد الارض بطريق علم الكيمياء فان اختلاف الارض جودة ورداءة كما دلت عليه التجربة وعرفه الفلاحون دون معرفة أسبابه حتى انهم يقولون ان الارض الضعيفة يجب ان تكون زراعة القطن فيها متقاربة الحفر حتى تكون المسافات بين شجره قصارا وان الارض الجيدة يجب ان تكون على خلاف ذلك انما هو بسبب اختلاف الارض فى اشتمالها على المواد النافعة لصنف من أصناف الزراعة فاذا صار البحث عن ذلك بتلك الطريق العلمية فلابد أنهم يقفون على طريقة يمنعون بها أهل الفلاحة من حفر ديارهم وازالة الروابى فان ذلك ينشأ عنه البتة ذلك الضرر وزيادة على ذلك انه والعياذ بالله اذا حصل غرق لبعض النواحى فانه يفسد أول ما يفسد البلاد لكونها صارت منحطة * ومن حق الدار اجادة بنائها باختيار موادها وتنقيتها مما يوجب سرعة انحلال البناء وفى ذلك ابقاء أثر البانى ورحمته باعقابه ومن يخلفه فى وطنه حيث يجد المسكن الذى ينتفع به ويترحم لسلفه وفيه كثرة الاجر حسبما نص عليه سيد الامة صلى الله عليه وسلم حيث يقول من بنى بناء كان له أجره ما انتفع به خلق من خلق الله فهل يسمع مؤمن هذا الحديث ولا يبذل جهده ويفرغ وسعه فى اجادة البناء حتى يطول بقاؤه وانتفاع الخلق به فيكثر أجره * ومن حقها المبادرة باصلاح خللها وترميمها وعدم الاهمال حتى يكبر الخلل فيعجز عن اصلاحه فان الخلل سريع الاتساع يدعو بعضه بعضا وكم من يرى ذلك ولا يلتفت اليه التفات الاعتبار تهاونا وميلا مع الكسل حتى يقع فى الاسف ويرجع للتمنى فيقول باليتنى فعلت باليتنى بادرت ولكن حين لا يغنى وماذكرنا من حق الدار يرشدك الى بقية حقوقها التى بها كمال منفعتك وتمام راحتك فذلك هو الاساس الذى ينبغى اعتباره لكل عمل تجتهد فى اتمامه * وحق الدرب ان يتعاون أهله ويساعد بعضهم بعضا فيما يطرأ عليهم من المهمات * وحق المدينة ان يتوجه نظر جميع أهلها الى صلاح شوارعها وطرقها حتى لا يتزاحموا فيها تزاحم البهائم العطاش عند ورود المياه فيقدروا مقدار راحتهم عند ترددهم فى حوائجهم لا كما هو حاصل الآن حيث ترى الناس فى حال كريهة يزاحم بعضهم بعضا فى الطرق لا يرحم قوى ضعيفا ولا يعطف كبير على صغير ترى راكب الدابة أو العربة كأنما هو هارب من نار لو تمهل التهمته ومركوبه لا يلتفت الى راجل كأنه ما كان فهذا تنكسر رجله بالعربة وذلك ينضغط بينها وبين الجدار الى غير ذلك من مفاسد

التزاحم المشهودة وقد سمعت الآن ان ضابطية مصر التفتت الى ذلك نوع التفات ونبهت عسكر المحافظة الملزمين رعاية المارة الى ان يلتفتوا لذلك وأمرت برقم اعداد على عربات الاجرة ليعرفها العسكرى اذا مرت عليه فاذا حصل منها ضرر نبه عليها ليعاملوا حافظها بما يستحق وانما خصوا ذلك الالتفات بعربات الاجرة لانهم وجدوا ان أكثر ما حصل من المفاسد انما هو من جهتها ولكن لو اتسع النظر وكانت الاعمال عن احكام روية لوجدوا ان المدينة غير صالحة لكيفية هذا المرور الحاصل وانه لا يمكن التحرز الا عن اضرار الكسر والقتل والافرعب الضعفاء وروع العواجز واحتقار بعض الناس بعضا لا يزال مستمرا واذا سمعت كما هو مشاع صفة المدن فى البلاد المتمدنة عرفت ان هذه الكيفية انما تليق بتلك المدن وذلك انهم يقولون ان شارع المدينة الفلانية منقسم أربعة أقسام قسمان ملاصقان للجدران وضعوا فيها أحجارا متلاصقة منتظمة بالبناء أحدهما للمشاة والآخر لركاب الدواب والناس يمضون عليها فى مهل راحتهم المتقدم متقدم والمتأخر متأخر لا يزاحم أحد أحدا ولا يقف أحد فى الطريق فاذا احتاج للوقوف انعطف الى محلات معدات لذلك بين بيوت أدب يقضى فيها المار حاجته حين عروضها له فى الطريق وبين خانات ومواضع أشربة وغير ذلك وقسمان لمرور العربات أحدهما للذاهب والآخر للآتى بحيث تكون عربة الامير خلف عربة المأمور لا يسمح له القانون وذمة الاشتراك المدنى ان يضطره للانحراف والتعطل عن مروره لتسبق عربته فاذا كانت المدينة بهذه الوضع لم تحتج الى عسكر الملاحظة الا فى أمور أخر كحفظ السواقط ورفع اللقط ومنع الاشقياء من التعدى واذا لم تكن المدينة على هذه الصفة لم يكن للناس ان يترددوا الامشاة أو ركاب دواب متقاربة يتحفظون من ايذائها لخلق الله فحينئذ يأمن الضعيف المار بجانب الجدار من غوائل المزاحمة ومن الله الهداية ❊ وحق القطران يعتبره أهله كما سلف التنبيه له اعتبار الشخص القادر دارا فكما أنه حيث يريد انشاءها بعث الفكر لتحصيل الصورة التى هى أدخل فى كمال الانتفاع بها فاذا استحكمت له الصورة توجه الى اختيار المواد التى بها تكون على ما قدّر فيحكم أساسها ويجيد بناءها كل ناحية على حسب ما يليق بها كما تهديه اليه المعارف الهندسية والاصول الطبية فاذا تمت له كما أراد وجد عند سكناها راحة قلبه وسروره ورفاهة بدنه وصحته بحيث متى اشتدّ الحر وجد منه الوقاية الكافية ومتى اشتد البرد وجد الحماية الوافية الى غير ذلك من جميع المرافق المنزلية كذلك القطر

يجب أن يكون منظور الاهـله نظر الحكمة والمعرفة حتى لا يكون فيه قصور عن كمال انتفاع الجميع به فلا تسمع فيه من جهة المعيشة شكوى الا أن تكون شكوى بطر كما هو مركوز فى طباع الانسان اذ هو لا يزال طامحا بالامل نحو الغاية وقد قيل

حب التناهى غلط * خير الامور الوسط

فاذا سلك جميع أهل القطر طريق المعرفة ورسخ فى نفوس الكل ضرورة احتياجه الى حماية واعمال لا يتم الا بها أمنهم على أنفسهم واعراضهم وأموالهم وكمال انتفاعهم به وامتناع بعضهم من عدوان بعض لم تجدهم نافرين عن التوجه لاصلاح جسر أو حفر ترعة أو قيام بوظيفة عسكرى حيث عرف الجميع منفعة ذلك وان لكل شخص حصة منه اذ لا يمكن ان يتناول أحد لقمة لغذائه وان ينام فى راحة سر وان يتردد فى حاجته دون وسواس وتشوّش خاطر الا بذلك لا كما كان حاصلا قبل العناية الالهية باقامة العائلة المحمدية نظارة فى اصلاح هذا القطر وتنقيته من المفاسد واعداد جميع بقاعه لامكان الاقامة فى غزير نعمها فقد كان هذا القطر قبل تلك العناية واقعا تحت افساد ثلاث طوائف لا ترى كل طائفة الاحظ نفسها ومنفعة جملتها فكان العمال فى الزراعة مستعملين لهذه الطوائف لا أقول استعمال البهائم بل استعمالا آخر لا يدركه الوصف ولا يحيط به التصوّر وتلك الطوائف هم المماليك الذين كان يدعى الواحد منهم أستاذ الناحية والعرب الذين كانوا يسكنون بساط الرمال وعمد النواحى فكان المماليك لا يشتغلون الا بتحصيل الغنم والدجاج والبيض والسمن الى غير ذلك مما يديرون به مطابخهم وفى بعض الاحيان يشتدون فى طلب الذهب والفضة والناس ليس بأيديهم حتى فلوس النحاس كما يدل على ذلك ما يوجد احيانا فى بلاد الفلاحين من بعض جرار من الفخار مملوءة من صنف الفلوس الذى كان يسمى جديدا كل عشرة منه بنصف وهو خمس الخمسة فيسترحم الفلاحون بتأخير الطلب الى مدة فيطلبون منهم أشخاصا من أولاد أكابرهم يكونون رهنا عندهم حتى يؤدّوا المطلوب فكان الشخص من الرهائن يود ان لا ينفك رهنه مدة حياته لما يجد هنالك من الاطعمة اللذيذة التى لم تمر لها صورة فى خياله * وأما العرب فكانوا قد اقتسموا نواحى البلاد كل قبيلة وضعت لنفسها احدًا ولذلك كان يحصل بين القبائل حروب وكان افسادهم متنوّعا فمنه ان أهل القوّة يفرضون على البلاد فروضا واذا مرّ الواحد منهم على فلاح يحرث أرضا سأله عن صنف

الزراعة الذى أراده فتى عرف ذلك قال أنا شريكك وتركه ومضى حتى اذا جاء وقت الحصاد حضر وقاسمه الغلة نقية نظيفة وافية الكيل وانظر ما يفعله القادر الظالم الغشوم الذى لا يرجع الى ذمة ولا يتمسك بدين ولا تضبطه حكومة وكانت البدوية من البدويات تمر بالرجل يسوق ساقية فتنام له فى مدار الثور فان لم يبادر الفلاح بمنعه من الحركة حتى يمس طرف ثيابها اهلك بسيوف قومها وخرب منزله فكان يبادر بايقاف البهيمة ويسأل البدوية عما تريد فتقترح عليه ماشاءت من بن وصابون وأقمشة فلا تبرح مكانها حتى يحضرلها جميع ما رسمت وكان لكل من أقوياء العرب الذين لهم نوع رياسة أوقرابة من الرئيس جملة من الناس يسمى الواحد منهم نوريا أوليليا فالنورى يرسله صاحبه للاسواق يختطف له أو يشرط الجيوب ويحضر بكل ما تحصل معه وأما الليلى فيرسله فى أرض قبيلة غير قبيلته ليسرق له ما تمكن من سرقته وكان الليليون لا يرسلون الا جماعات لتكون لهم قوة على التخلص ممن يتنبه لمدافعتهم وكثيرا ما كانوا يقتلون من أهل النعم بتلك النواحى فهذا أنموذج مفاسد العرب * وأما العمد فكانوا كما يعملون اعمال العرب يستعبدون من تحت أيديهم من أهل بلادهم ويسخرونهم فى أشغالهم الخاصة بهم بأدنى القوت وأردئه لا ينال الواحد منهم ثوبا يستر به بدنه الابعد ان يعرى مدة هو وامرأته وما كان له من ولد ونشأ عن ذلك أن لم يبق معمورا من أرض الزراعة الا القليل اذ كان الغرض منها انتفاع العمدة فهو يحدد قطعة يصرف الى عمارتها قوة من بيده من الفلاحين وهم قليل اذذاك فكان غاية ما يزرع فى البلد التى يزرعها الآن ألف فدان أو أكثر مائتى فدان فاقل وثم بقية من الناس الذين شاهدوا آخر ذلك وسمعناه من كثير سبق انتقالهم للآخرة قبل التاريخ بقليل من السنين فنحمد الله سبحانه وتعالى أن أرسل لهذا القطر من أنقذه من تلك المفاسد الشنيعة وان بقى منها بعض اعمال ورثها العمد الحالمون عن آبائهم وقد تنازلوا عن كثير منها مثل ان الرجل اذا أراد ان يزوج ابنه أو بنته فجميع المهر يأخذه العمدة وبصحبته رأسان أو أكثر من الغنم أو البقر حسب طاقة من يريد التزويج والطامة الكبرى ان البنت تبيت أول ليلة فى صورة العروس عند العمدة يتمتع بها ويفترعها ثم تزف ثانى ليلة لصاحبها ووقع بسبب ذلك قتل كثير فكما نحمد الله ونشكره على زوال ذلك وطهارة البلاد منه نسأله توفيق أهل الصدق والامان والانظار الخبيرة من رؤسائه ان يلتفوا الاستئصال شأفة ما بقى فى نفوس العمد من ظلم الاهالى بكيفية لا توجب خروجهم عن

طاعة العمد الى عصيانهم واحتقارهم وعدم المبالاة بامكنتهم لما فى ذلك من كبير
مفسدة فان الفلاح بعد لم يخرج عن الجهالة وطبع البغى والعدوان فيلزم دائما
ان تكون الرهبة متمثلة بين عينيه انما غاية المأمول ان يستوفى الناس قيم
اعمالهم بحيث يجدون سعة فى أغذيتهم وأكسيتهم بحيث يوجد فى طباعهم
ويتأكد ويقوى حب الاقبال على مشاق الاعمال ولا يحرجون بتضييق
الارزاق الى تولد الخلال الخسيسة فى نفوسهم كالميل الى السرقة والمماطلة فى
الحقوق كما هو حاصل الآن وليس له سبب سوى ذلك * وحق الارض ان تنظر
جميع الامم الذين اقتسموا نواحيها اقتساما طبيعيا أوغير طبيعى فان اختلاف
الالسنة يوجب ميلا بين أهل اللسان الواحد ونوع نفرة عن أهل لسان غيره
فان أهل اللسان قد عرف بعضهم بعضا من حين الثدى وحصلت بينهم ألفة
التعاون وتقاضى الاغراض وانتفاع كل بقوة صاحبه دون كافة مشعورة
وليس الحال كذلك بين أمتين اختلف لسانهما فان كل أمة تكون قد
اختصت بعادات ألفتها وأحوال عرفتها حتى صارت تعد من غرائزها
وخلائقها فاذا أرادت أمة ان تخالط أمة وجدت كلفة شديدة فى معرفة
احداهما لسان الاخرى والتنازل عن بعض العادات ومن ذلك لابد ان تكون
نفرة الأنهم وان اختلفوا ذلك الاختلاف محتاج بعضهم الى بعض بما خص
الله به كل ناحية من النواحى من المواد النافعة المطلوبة للكل مثلا لا يوجد
الحديد وهو داخل فى كل منفعة الا فى ناحية من نواحى الارض وكذلك
النحاس والذهب والفضة والاخشاب العظيمة ومقتضى ذلك الاحتياج
العام انه يجب على جميع الامم ان يتعارفوا من تلك الجهة وتكون بينهم عهود
مرعية وقوانين محفوظة حتى تؤمن المسالك ويعم انتفاع بعض الناس ببعض
وذلك انما يكلف به خواص الامم وذووا العقول منهم دون عوامهم فان تعقل
الاحوال يفهمنا ان أكثر الناس مخلوقون للانتفاع بابدانهم فلا يكلفون
ما تكلف العقلاء بل هم مسوسون مربوبون موكولون الى ملاحظة ذوى
العقول النيرة والافهام الصحيحة والآراء النافذة من أهل الذكاء والفطنة
وهم قليل يرشدك اليه ان أنبياء الله ورسله معدودون والناس غير معدودين
ولا أرى أحدا استنار فكره يخالف فى ذلك فاذا كان أكثر الناس لا يصح
ان يوكلوا الى شهواتهم وميولاتهم الحيوانية التى تستوجب لا محالة وقوع
الهرج والمرج فيما بينهم حتى يؤدى الى التفانى وفساد النوع تبين ان خواص
الامم هم الملزمون الزاما دينيا أو خلقيا أو طبيعيا كيفما تقل فقل بان ينظروا

فى ذلك الارتباط الضرورى بين الامم وان يسعوا فى ابراز مقتضياته على الوجه المحبوب للكافة وان يقيموا فيما بينهم منار المناظرة والاحتجاج الذى هو ثمرات العقول دون ان يستعملوا أبدان الناس فيما تنفر منه الطبيعة ويظهر اخلاله بالنظام ظهورا بينا حتى لا تكون معاملتهم معاملة البهائم العجم التى تتناطح بالقرون والسباع العادية التى تتفارس بالمخالب والانياب ولكن حيث كانت طبيعة العدوان تقتضى التزاحم على المشتهيات خصوصا المعنوية التى هى الرياسة ومقام الملك والتدبير غالبة على غيرها من الطباع الانسانية كان ذلك النظر التعقلى مغلوبا مقهورا حتى توجهت الافكار الى احكام القلاع والحصون والافتنان فى آلات القتال حتى كان الحكم قهريا بالاخافة وتلك حكمة من الحكم الالهية اذ وقع بها التحاجز عند الالتفات والتنبه الى وجوب اختلاط الامم بعضهم ببعض لتوسيع المنافع الانسانية وتنظيم الاحوال البشرية فلا أرى بعيدا انهم حيث انتهوا فى ذلك الى غاية ليس وراءها مسعى ان يفهموا اما ساقتهم اليه الالهامات السماوية من الاستعداد الى مقاومة بعضهم بعضا وتكافئ القوى نوع تكافئ فيقفوا عند ذلك وقوف الاستبصار حتى يكون أهم أمر عندهم ان ينظروا فى تدبير الامم وسياستهم وارشادهم الى مقتضيات الانسانية من وجوب الاصلاح والتوافق على الاختصاص بحيث يقال ان هذا حق فلان وهذا حق فلان فاذا تعينت الحقوق وعرف كل ان له وعليه أخذوا فى اصلاح الطرق للاستحقاق وتحسينها وانتظم الامر وسار الناس فى نهج الاستقامة وما ذلك على الله بعظيم نسأله التوفيق لاقوم طريق * وحق العالم وهو الحق الاكبر الذى يجب انصراف الهمم وتوجه الافكار اليه اذ كان جميع العالم مسخر لمنفعة نوع الانسان وبه وقع الامتنان الالهى واقامة حجة الافضال والاحسان عليه فقال فى كتابه العزيز هو الذى خلق لكم ما فى الارض جميعا وقال وسخر لكم ما فى السموات وما فى الارض جميعا منه ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون أى يتفكروا فيما خلق الله من شئ ويعرفوه من جهة ما هو مسخر لهم فالعالم هو المدرسة الاولى وجميع ما فيه من الاشياء صحائفك التى اذا استنار عقلك قرأت ما فيها فوصلت الى ما ينفعك من علم وأخذته من معدنه صافيا ليس فيه كدر وكنت متلقيا عن الحضرة الالهية دون واسطة كما هو حال النبى الامى الذى قيل له اقرأ فقال ما أنا بقارئ حيث لم يسبق له دخول مكتب ولا تتلمذ لاحد فقيل له اقرأ فاعاد الجواب فقيل اقرأ باسم ربك فادخل الى المعرفة والتعلم من باب

الربوبية

الربوبية فاسترشد بملاحظة مبدئه وأوليـة أمره وكونه مخلوقا من علق تذكرا لتعاقب الاحوال وتتابع الاطوار وابتداء من البرزخ الفاصل بين ناحيتى الادراك وعدمه وهو العلق أى الدم فعنده ابتداء ظهور الحياة الحيوانية التى هى بعد كثير من مراتب الحياة فسار تلك السيرة وقيل له عند ذلك اقرأ وربك الاكرم أى المفيض عليك من المعارف ما أعدك للوصول اليه حتى انتهى الى كثير محفوظ يستأهل ان يضبط بالكتابة فكان ابتداء المدارس الصناعية التى لاجلها تتخذ الاقلام والمحابر والصحائف لضبط ما هو منقول من صحائف العالم والمدارسة فيه ولا أقول ان ذلك ابتداء وجود فان المدارس الصناعية مازالت قائمة وفيها التعلم والتعليم مدة الازمنة التى وصل الينا علمنا ولكن ابتداء وجود دورى رأينا أوله وطريق سيره حتى انتهى الى الحالة المشهودة وهى نتيجة ما سلف من الاحوال المنتظمة التى اقتضى بعضها بعضا وان كان الغافل الذى لم يختبر الاحوال وتسلسلها فى الوجود يرى عند النظرة الحمقاء انقطاعا فى سلسلة الاحوال فاذا تأمل رجع الى معرفة الحق والاقرار به وان ما هو موجود الآن انما هو نتيجة ما سلف فاذا تفكر الناس هذا التفكر وقد كان من كثير منهم عرفوا الاشياء وخواصها وكيف يستعملونها وينتفعون بها وعند ذلك يكونون مستخدمين للطبيعة يصرفونها فى اراداتهم ولا يكونون مستخدمين مسوقين بسياط الحاجات والضرورات لا يفتكر الانسان فى احراق النار حتى تلدغه ولا كظم الماء حتى يغرق فيه ومما يتعجب منه ان بعض الناس يسمع ويرى ثم لا تأخذه غيرة توجب اتساع معارفه واتصال منافعه كما هو حال جيرانهم وملاصقيهم أرضا الارض وديار الديار والا فما هذه الفترة والبطء والاستنامة لكوذاب الامانى واضغاث الاحلام حتى صرنا بمنزلة العيال والاتباع نكل النظر فى مصالحنا والفكر فى منافعنا الى قوم كل ما تخيلناه فيهم بالنسبة الى مصالحنا ومنافعنا فاسد فكل يميل الى شهوته وكل يريد رضاء نفسه ويطلب نارا الى برمته نبتهل الى الله فى تفقيه أنفسنا واقامة التفاتنا حتى لا نجهل منافع الحرارة وخواص الرطوبة ونتائج البرودة واليبوسة التى هى اصول تكويننا وفيها حياتنا ونغضى بخاصة أفكارنا الى ما نساوى به غيرنا ان لم يكن طمع فى الفوقان والظهور عليه فانا لو رجعنا الى وجداننا لم نجد خلوا من الاستعداد لاجمل الاحوال وأكملها زادنا الله استبصارا قد رأينا ابتداء افضال الله علينا به واحسانه المنافية فيا يومنا كأمسنا وقد ابتدأنا ان نقول وقلنا فبالحرى ان نسترسل فى أعمال عرفنا حسنها وجلالة غايتها

الحكومة

الحكومة قوة تحصل من اجتماع طائفة من الامة لامضاء مقتضيات الطبيعة على وجه يقرب من رضاء الكافة فاذا لم تكن كذلك كانت شيأ آخر يطلب له اسم غير هذا الاسم فقولنا لامضاء مقتضيات الطبيعة مقصود ه ان الناس بحسب خلقة حياتهم يأكلون و يشربون و يلبسون و يكتنون و يزوجون ذكورهم باناثهم و يكابدون فى ذلك مشاق كثيرة و يعانون شدائد جمة رغبة منهم واختيارا لا قسرا واضطرارا طبق ما زين لهم واخبر به خالقهم سبحانه وتعالى اذ يقول زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين الآية فاذا عارضت تلك القوة الطبيعة فى ذلك فمنعت الناس من تمام الانتفاع باعمالهم كان ذلك سببا لمفاسد عظيمة منها شدة الغم وسوء الخلق واغمار الشر لاهل تلك القوة وطلب الكسب بطرق قبيحة كالسرقة والغضب والاختلاس والزنا وهو الطامة الكبرى اذ يكون منه ذرية فاسدة غير مكفولة بعلاقة الابوة والبنوة فتخرج بين الناس بر بية سيئة وطباع شنيعة يكون منها فى الاجتماع النوعى شر عظيم ولذلك ترى تشديد الشرائع فى أمر الزنا وقولنا على وجه يقرب من رضاء الكافة معناه ان لا يبعد من رضاهم فيكون جورا و رضاء الكافة غير ممكن ولذلك تسمع من رؤساء الامم زيادة الترغيب فى الرضاء والصبر والحث عليه وبيان ما أعد للراضى الصابر من النعيم والثواب المقيم ومنشؤ ذلك ان خالق العالم سبحانه خلق المنافع متفاوتة فيما يراه الناس و جعل الطيبات منها قليلا جدا والحكمة فيه تمكين الداعية لمباشرة المتاعب والمشاق أملا فى الوصول للغايات فانتظمت بذلك الاحوال وتواترت الاعمال وجاد الترتيب وتعينت المراتب وكان الحاكم والمحكوم حيث اقتضى ذلك التفاوت فى المنافع شدة المزاحمة وقوة المغالبة فلو ترك الناس وأهواءهم وخلوا وشهواتهم لتهالكوا وتفانوا كما أشار لذلك أمير المؤمنين على كرم الله وجهه ونفعنا بما يروى عنه حيث يقول لولا ثلاثة أشياء لم يسل سيف قط سلك أدق من سلك ووجه أصبح من وجه ولقمة أسوغ من لقمة أراد بالسلك الخيط وكنى به عن الثياب وتفاوتها مادة وصورة فالكتان وما يصنع منه ليس كالحرير وما يصنع منه وربما جادت الصنعة فى المادة الخسيسة فكانت أحسن واشتد طلبها وقويت الرغبة فيها وقوله ووجه أصبح من وجه كنى به عن تفاوت النساء جمالا وخفة أرواح وشطارة حركات وعن الغلمان المتخذة للخدمة المصرفة فى الاعمال بين أيدى الكبار وقوله ولقمة

أسوغ من لقمة ابانة عن تفاوت الاطعمة مادة وصنعة أيضا فاذا نظرت لما يحصل به الترف والتنعم وزيادة الرفاهية من رقاق الملابس وحسان الوجوه وطيبات الاطعمة وقلة ذلك جدا رأيت ان من المحال كفايته للجميع سيما وقد ركب فى الطباع الحرص وطلب ما يزيد عن الحاجة فوجب عند ذلك الحاجزة بين الناس وربط قسمة الارزاق بالاعمال الفكرية والبدنية وهو معنى الحكومة ❋ فاذا قام بعض الناس وحظر بعض الطيبات عن غير جملته وأفرط فى الترفه والتنعم حتى كأن الدنيا خلقت له وحده وان الناس مخلوقون لخدمته ومكابدة المشاق والمتاعب فى تحصيل لذاته وشهواته وليس لهم من ثمرات أعمالهم الا ما يحفظون به قوى أبدانهم نوعا من الحفظ لتصريفها فى اغراضه كما كان حاصلا قبل قيام الملة الاسلامية وحصل أيضا بعد قيامها من ملوك الجور وولاة السوء وامراء الظلم فكانت مدة النبى صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين ومن حذا حذوهم من الملوك كالانوار بين الظلم أنوارا مختلفة وظلمات متفاوتة (وينبهك لذلك ما يحكى) ان أخوين من أصحاب على رضى الله عنه انعم الله عليهما فكانا ذوى مال وبنين فاختار أحدهما الزهد فى الدنيا والتقشف فى المعيشة ولبس العباءة وانتبذ فى رؤس الجبال يخلو بعبادة ربه فرفع أخوه قصته الى على وأبدى اليه ضجره من ذلك فاستدعاه على وقال ما حملك على ما بلغنى عنك فقال الرغبة فى رضاء الله عز وجل فقال له أنت أهون على الله من ان يخلق لك الطيبات وهو يكره ان تتناولها فعد الى سيرتك الاولى وامتثل أمر الله ونهيه وعليك بتقوى الله فيما خولك من نعمه فارع مالك وربِّ أولادك واقض حق نسائك فقال ذلك الرجل فما بالك اذا يا أمير المؤمنين تأكل اليابس وتلبس الخشن فقال أنا امام عرضة لنظر الغنى والفقير والقوى والضعيف فوجب ان أظهر بهذا المظهر ليقتصد الغنى فى الترف ويهون على الفقير حاله فذلك القائم الحاظر هو الجائر الباغى المعتدى الظالم الذى يجب على الامة ان تكف شره عا تراه من الاخذ على يده أو انتباذه وطرحه وحال ذلك القائم هو الاستئثار المذموم الموجب للتحاسد وليس معنى الاستئثار الاختصاص فان الاختصاص أمر واجب وصلاح أحوال الامة بدونه غير ممكن ولا اريد بما سمعت انه لا ينبغى للملوك ورؤساء الامة ان تظهر عليهم آثار نعم الله فان ذلك أمر مطلوب من سائر الناس كما قال صلى الله عليه وسلم ان الله يحب ان يرى أثر نعمته على عبده ولكن الغرض ان يحقق الناس معنى الحكومة بحيث يفوضون الوصول الى اى مطلوب من المطلوبات الى

أعمال الناس واجتهادهم فى طلبه حتى اذا وصل الى ما وصل اليه بطلبه كان متمتعا به آمنا عليه غير خائف من انتقاص حظه فيه وان لا يفرط الكبراء فى الاحتياز والتوسع البارد المؤدى الى كثير من المفاسد حتى يكون ما آله حسرة عليهم وندامة لهم فى الدنيا قبل الآخرة مثلا ترى الواحد يتخذ جملة من الدور الكبار المخدة المشيدة يبالغ فى زينتها وزخرفتها بما ينقص من منافع الناس ثم يملؤها بالحور العين كأنه يريد ان يستعجل الجنة فى الدنيا ثم يرتب فى تلك الدور لذائذ الاطعمة وطرائف الملابس ونفائس الحلى من الذهب والفضة وأنواع الجواهر حتى يثير غلة شهوات حادة ويلهب حرارات محتدمة ثم تسوّل له نفسه الخبيثة أنه قادر على تلطيف تلك الحرارات وتليين تلك الشهوات فتكذبه قوّته وتهزأ به قدرته فبعد حين من ثورته وهيجانه تراه كليلا ضعيفا طريحا كما طار وقع ومتى هم انكفأ وصار ينظر الى ما حوله نظر الآسف الحزين الطالب الممنوع فى خذلان وكثافة بال ظاهره ملك قاهر وباطنه مملوك مقهور مستضعف محقور ترك ذلك الجمع من النساء فى أحوال سيئة يضمرن له الشر ويبتهلن فى الدعاء عليه بالزوال همة الواحدة منهن ان تجد عبدا أو سائس اصطبل فان سعدت بذلك وقضت اربتها والا رجعت الى المساحقة أو استعمال الآلات المتخذة من القطيفة المحشوة بالقطن حشوا منديحا ولتلك الآلات صناع يجيدون صنعتها حسب طلب النساء فالى أى أمر فظيع آل أمر هذا القرطبان أى الديوث الذى ليس له غيرة فن مثل هذه الاشياء يحذر جميع الناس ملوكا ورعايا وانظر الى عاقبة تلك الدور حيث تفرق الايام سكانها فتبقى بين العمران كالكلف والنمش والبهق فى وجوه الحسان بما تصير اليه من الخراب المفزع والهيئات المزعجة حتى يقتسمها الناس بعد مضى مدة عليها وهى فى ذلك المنظر الكريه قطعا صغارا يبنونها مساكن على نسبة قواهم المعتادة وأحوالهم المتقاربة والحق أبين من ان يبالغ فى ايضاحه ويشتد فى الدلالة عليه * فاذا فهمنا معنى الحكومة الحقة عرفنا ان الغرض منها انما هو حماية الوطن ممن يريده بسوء وتأمين أهله من تعدى بعضهم على بعض واعانة كل على حفظ حقه والانتفاع به حتى يظهر فى الجميع السرور والفرح والرضا كما قيل * أربعة تحتاج لاربعة السرور للامن والحسب للادب والعقل للتجربة والغنا للتدبير وذلك أمر ظاهر بين والكلام فيه انما هو لجمع متفرقة بالعبارة عنه * فالحاصل ان أركان حسن اجتماع الامة التى لا يمكن بفقد واحد منها أن يكون أربعة الامن والادب والتجربة بمعنى المعارف والعلوم اذ هى نتيجة

التجربة

التجربة والتدبير فاذا لم يكن أمن ووقع الناس فى الفزع والخوف على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم ولم يكن أدب فاحترام الصغير الكبير والجاهل العالم ولم يكن للمعارف تحصيل وعطلت العقول وزاد الاسراف والسفه فكيف الحال هى والله الحال التى لولا الامل فى تغيرها لاستعجل الناس الراحة منها بازهاق أرواحهم بأيديهم وحيث كانت أعمال الحكومة كثيرة نوعتها المناسبات وجب ان تكون طوائف وهى طائفة العسكر وطائفة القضاة وطائفة الجباة وطائفة الكتبة ولكل منها أعمال معروفة وآداب لازمة وواجبات مرعية أما العسكر فالطائفة التى هى باول مكان من عناية الامة تنتخبها من أهل الشدة وسلامة الابدان وتمام الجسامة لتكون عليها سورا يقيها طوارئ الاسواء وبينها حاجزا يمنع سفهاءها من تعدى بعضهم على بعض حيث تحققت مما سلف ان الناس متزاحمون على مطلوب واحد وخصوصا طيباته ونفائسه لا تكفى الجميع وهى مطامح العيون ومحوّم النفوس وكل طالب شيأ محب للاختصاص به ولاسيما والمطلوب الحياة يكره كل مايعوقه عن الوصول لبعض مطلوبه وتعويق بعض الناس بعضا لياخذ كل حصته أمر ضرورى الوقوع فاذا لامحالة تكون بينهم من تلك الجهة عداوة بينة ومن ثم وجب التوافق والتراضى على وضع أصول يلتزمونها ويرجعون اليها فى رفع المنازعات وفصل الخصومات مثل من أحيى مواتا فهوله أى من عمر بعمله أرضا وأصلحها للنبات فهى حقه يختص بها ليس لغيره ان ينتفع بها دون رضاه وان الصيد لمن قنصه لا لمن أثاره فاذا تعينت الاصول التى بها يتمكن الجميع من وصوله لحصته وبلوغه لحاجته وارتفاق بعضهم ببعض وجب ان يلاحظوا فى حركاتهم وأعمالهم ليأمنوا غوائل الحوادث الناجمة فيهم والهاجمة عليهم وذلك وظيفة طائفة العسكر وحينئذ يجب ان يكون بعضهم ملازما للثغور وهى أطراف ناحية الامة وقسمها من الارض لحفظها من طروق مايدخل بالخلل على أمن الامة والبعض منبثا فيها لملاحظة أهل الشر والفساد ليلا ونهارا واذا كان هذا موضع العسكر من الامة فعليها ان تعرف لهم شرف خدمتهم وجلال مكانتهم وأن مايصرفونه لجهتهم ويقتطعونه من أكسابهم لحسن معيشتهم ورفاهة بالهم وراحة خاطرهم وجودة اقبالهم على ماأرسلوا له ليس شيأ بالنسبة لما يعرّضون اليه نفوسهم من الاخطار فى حمايتهم وتمكين أمنهم كما قيل

كم بين قوم انما نفقاتهم * مال وقوم ينفقون الانفسا

ومن وظائف العسكر الضبط والاخذ على أيدى أهل البغى والعدوان فهم

الحكام الذين من جهتهم تقطع عروق الجنايات وتحسم أصول الفساد فان بهم المخافة التى لابد منها فى ردع الانفس المستعدة طبعا لانشاء الشر وتكثيره والفرح عند ظهوره * وأما القضاة فهم طائفة حمل الشرع وحفظ الاحكام التى تقرر ان رفع المنازعات وفصل الخصومات انما يكون بها واذن يجب ان تنتخبهم الامة من أول أمرهم ومبدء نشأتهم أذكياء فطناء ذات التجربة والاختبار على قوة حفظهم وحسن ضبطهم فيأخذون بمحاسن الآداب ومهذبات النفوس ويعرفون شرف مكانتهم من الامة وانهم خلفاء الانبياء فاذا أمضوا صدرا من نفيس أعمارهم فى تحفظ الاحكام وتعرف الحوادث وصنعة تطبيقها عليها واذن يكونون قد بلغوا سن الجلالة وعمر المهابة فيرصدون أنفسهم على أجمل هيئة وأحسن سمت وأكمل وقار لتلقى الخصوم واستماع الدعاوى يملؤن العيون جلالة والقلوب مهابة بحيث تضعف قوة المبطل ويهم بالرجوع عن باطله وتشتد قوة المحق ويزيد أمله فى الوصول اليه لا يكون فى مجالسهم لغط ولا صخب ولا حركات فاسدة ولا كلمات باردة كما هو جار فى مجالس قضاتنا اليوم فان ذلك يذهب بحرمتهم ويستأصل اعتبارهم ويزيد أهل الزور اجتراء عليه ويضعف ثقة طالب الحق بسبب الوصول اليه حتى انه ربما يتمنى ان لو أغضى عن طلبه وحاجته مشتدة اليه ولم يحضر الى بعض تلك المجالس المعمورة بالجهلة الاغبياء الذين هم من صيانة الدين وعصمة المروءة بمعزل واعتماد أحدهم واعتذار الناس فى الرضا به على أنه يجوز تولية الجاهل الخسيس شرف خطة القضاء لكونه ملزما لا مفتيا وتلك كلمة قيلت لعلها لملاحظة أوقات الضرورة وفشو الجهل والافهم يقضى القاضى اذا لم يكن عارفا تلك الاصول التى قلنا ان بها رفع المنازعات (فان قيل) انه يكون مصحوبا برجل عارف بتلك الاصول (قلنا) انه حينئذ يكون العارف هو القاضى والذى يسمى قاضيا يكون من أعوانه وبعض زبانيته فان القضاة لعهد النبى صلى الله عليه وسلم وخلفائه الراشدين ومن بعدهم من رؤس ملوك الاسلام هم مثل عمر بن الخطاب وعلى ابن أبى طالب وشريح واياس وأبى يوسف وهم من هم فاولئك القضاة حفاظ الشريعة خلفاء الانبياء * وأما الجباة فهم قوم من أهل الصدق والامانة والحلم والفضل ترصدهم الامة لتلقى ما تفرضه فى اكسابها وتؤديه ليكون منه نفقات العسكر وما تحتاجه المصالح العامة التى لا يختص بها فريق دون فريق * وأما الكتبة فهم نوعان كتبة الاحكام وكتبة الحساب ويجب ان يكونوا من أهل الامانة وشرف النفس وصحة الفهم وذكاء الخواطر ليكونوا سفراء بين الرعية

والرعاة

والرعاة سفارة خير يحفظون الحقوق ويضبطونها همة جميعهم رضاء الامة عنهم وانطلاق الالسنة بالثناء عليهم وصفتهم بصفات الكمال والنزاهة والصيانة وانهم لولا وساطتهم لضاعت الحقوق وبطلت الوثائق لا كأكثر كتاب الوقت السفهاء الشياطين الذين همة الواحد منهم ان يصل الى درهم يختطفه وخطة باطل يعمرها واساءة ذى حق كانه يتعبد بها قطع الله دابرهم واستأصل شأفتهم ورحم الامة بتربية ناس يكونون رحماء ذوى مروءة وشرف نفس يعرفون لخدمتهم مقام اعتبار ومحل احترام ويعرف لهم الناس ذلك ويكفونهم المؤنة أحسن كفاية حتى لا يكون لبال أحدهم اشتغال الا بتحسين القيام بامر وظيفته يخاطبون الناس خطاب اللطف ويجتهدون فى استبانة الحق ويعطفون على الضعفاء ويحتالون لالانة الاشداء وتخميد التهابهم فى دعوى الباطل اذ الكتبة فى الحقيقة هم الحكام فانهم هم المسفرون عما فى طوايا الانفس والوسط بين الرئيس والمرؤس فهؤلاء الطوائف الاربعة هم أجزاء الحكومة وأركانها ومن عداهم فاهل صناعة أو زراعة وتجارة محتاجون لمن ينظر فى أمر أمنهم ويقوم بحمايتهم وحياطتهم وصيانة انفسهم وأموالهم وأعراضهم ويصرفون اليه من اكسابهم مطمئنين بذلك راضين به ما تحسن به كفايته وتتم رفاهته فلا يشتغل الا بالفكر فيما عينته له والاعمال التى بها تمامه

﴿ العدل والظلم والسياسة ﴾

قالت الشرائع وقبلته العقول العدل ان يعمل كل احد عمله الذى يعود نفعه على الناس كاملا وان يوفيه الناس قيمة ذلك العمل كاملة فاذا لم يعمل وطلب قيمة او عمل ناقصا وطلب كاملة فقد ظلم واذا عمل ولم يوفه الناس قيمة عمله فقد ظلموه والسياسة تحديد الاعمال وتقدير القيم والزام الكل بالعمل وتوفية القيمة بما ان كلا منهما فرض يلزم تأديته فان لم يؤده بنفسه وجب الزامه وفى تحديد العمل وتقدير القيمة تتفاوت الآراء ويقع الحمد والذم ولكل أحد حظ من السياسة كما قال صاحب الشرع كلكم راع وكلكم مسؤل عن رعيته ولكن السياسة العامة مختصة باوفر الناس حلما وأنورهم فهما واكثرهم علما واكبرهم عزما وأصناف العمل كما رأيت لم تتجاوز أربعة وهى الصناعة والزراعة والتجارة والادارة وكل عمل غلب فى أرضه حسب اقتضاء طبيعة الناحية فعلى أهل السياسة ان يوجهوا أفكارهم أكثر أوقاتهم نحو ذلك العمل ويجعلوه الاساس عند تربية المعارف التى تجنى الامة ثمار سعادتها والله أعلم

﴿الحرية﴾

حيث كان من ضرورة الحياة الانسانية الاجتماع التعاوني والتعامل الارتفاقي وأن لابد من الاختصاص كما سلف تقريره حتى يكون هذا حق فلان وهذا حق فلان فالانسان لامحالة له وعليه فاذا عرف ماله وما عليه وكان له شرف نفس يمنعه ان يتجاوز ماله لاخذ ماليس له وانقياد لتأدية ما عليه واباء يقيه من اغتصابه ماليس عليه كان حرا وانسانا كاملا وعزيزا الى غير ذلك من الاسماء التي يتداولها الناس في التفاخر ومدح بعضهم بعضا فاذن الحرية معرفة وشرف وانقياد واباء فاذا لم يكن واحد من تلك الاشياء بان كان الانسان جاهلا دخل تحت أسر التعليم ومنع من الافعال حتى يعرف ماله فعله وماليس له فعله حذرا من وقوع الفساد وابطال معنى الاجتماع التعاوني الذي قلنا انه من ضرورة الحياة الانسانية اوكان خسيسا يعرف ماله ويتجاوزه الى ماليس له أو منقادا في محل الاباء أو آبيا في محل الانقياد اخذ الناس على يده ومنعوه من التصرف لما فيه من العدوان والظلم او الحماقة والسفه واذن يكون حكمه حكم البهيمة العجماء التي لا يصح في رأى احد ان تترك تفعل اهواءها أو يكون وسطا بين الانسان الكامل وبين البهيمة وحينئذ يطلب له اسم غير الحر فسمه ماشئت واذا كان عند احد تفسير للحرية غير هذا فليعرضه على طبقات الناس ممتثلا مصغيا لما يكون من جواب فانه لا يعدم بصيرا يهديه الى الصواب ويرشده للحق ويفهمه ان ذلك انما هو من غلبة شهوة واستحكام هوى والا فحيث كان كل انسان يريد ان يحيا حياة طيبة آمنة مطمئنة فهؤلاء ينازع في ان ليس للحرية تفسير غير ذلك وما يجرى على بعض ألسنة الناشئين في هذه الاوقات الحاضرة مما يوهم خلاف ذلك فخفه التنقيح والتهذيب وان أبوا وجب ان تتناولهم سياط التأديب فانه ليس سهلا تشويش أفكار الصغار بهذه الكلمات الباردة العائقة عن حسن التربية فان الصبي متى تعوّد في صغره ان يتكلم كلمات الجهل ويعمل اعمال الحيوانات لا يفرق بين ما يضره وما ينفعه لم يكن عند كبره الا بعض السباع الكاسرة أو البهائم الراتعة واذن يعم الفساد ولا يؤمل صلاح العباد وعمارة البلاد ﴿والمسؤل من ذوى البصائر أن لا يهملوا هذا الامر وان يجعلوه امام عنايتهم حتى يستأصلوا عرقه فهو نبات متى استفحل كان قتادا شائكا مؤذيا لا يسلم من أذاه من هبت عليه الرياح فيتكلموا بالصواب ويأخذوا بألسنة المخطئين المتكلمين بما يسوء العاقل سماعه وتضر بالناس عاقبته فان الحكمة الالهية ومقتضى طبيعة الحياة أن يسوس الناس بعضهم

بعضا

بعضا ويترصدوا الاقوال والافعال برعاية مالها من الآثار والعواقب فما كان موافقا للمصلحة العامة أثبتوه وقرّروه وما كان مخالفا نفوه وحضوه حتى تكون أمتهم مستحقة اسم الامة وانى لآسف شدة الاسف وأعجب كل العجب من حال أناس هم لاريب عقلاء الامة وكبارها والقادرون على التصرف فيها بالمحو والاثبات حيث أسمعهم يبالغون فى استحسان أمر وصفة حميد آثاره واستقباح آخر وذكروخيم عواقبه ثم لايبادرون بالاعمال الموجبة لبقاء الحمد وجميل الذكر اعتلالا باختلاف الآراء وشتات الاهواء وتباين الميل وذلك يمكن ان تقول انه قصور نظر وفتور همة مالهم لايحاولون وحدة الرأى واتفاق الهوى حيث كان مقصد الكل المنفعة (فان قيل) كل يقصد المنفعة كما تقول ولكنها المنفعة الخاصة التى بقصدها تتنافر الانفس اذ كل واحد لايريد حينئذ الارضاء نفسه وشهوة بدنه قلت لافانه متى عرف ان لاسبيل لحصول المنافع الخاصة وثباتها والأمن عليها الامن جهة حصول المنفعة العامة وثباتها حيث قلنا ان الاعمال الانسانية ومالها من الثمرات لاتكون الا بالاشتراك والتعاون فمتى تم الاشتراك وحسن التعاون جادت الاعمال وطابت الثمرات وظهر فيها الخير والبركة وبضدها تتميز الاشياء لم يكن للناس الاوجهة واحدة * وكأنى بقائل يقول انك على ماقررت فى أمر معنى الحرية قد خصصتها بأهل المعرفة وجردت منها سواهم فاقول ان الناس كلهم كما سلف التنبيه عليه فى غير موضع أهل معرفة فان أحد الايجهل المنفعة والمضرة وان كان تفصيل جزئيات ماله وماعليه ربما خفى وجه الحكمة فيه فهو يستند فى تعرفه وتقريره الى غيره من طائفة أرصدتها الامة لحفظ الاحكام ومعرفة الحكم كما يرشد اليه قوله تعالى فاسئلوا أهل الذكر ان كنتم لاتعلمون فالمعرفة اما بالنفس واما بالتبع

﴿التربية﴾

هى تبليغ الشئ حال كماله تدريجا ولكل شئ كمال والمعلم الاوّل طبيعة الموجودات وحاجة الانسان لما يحفظ حياته ويمكنه من كمال الانتفاع بها والمقصود بالكلام هنا بيان التربية الانسانية ومالها من العوائق والواجبات فانه متى جادت التربية الانسانية جاد ماسواها * وقبل الكلام فى هذا المقصود لابد من تقديم جملة هى له بمنزلة الاساس الذى ينبنى عليه والاصل الذى يتفرع منه (فنقول) قد عرفت دون تعريف ان كل أحد يحب ان يحيا حياة طيبة يستوفى جميع لذاتها ويأمن كل آلامها وان أمله لايدعه لحظة مايتخيل انتهاءها

فهو باذل جهده حسب استطاعته ومنتهى طاقته لتحصيل ما يحفظ بقاءه ويدفع ضرورات وقته وادخار ما يستعمله فى ذلك أبدا كما هو مركوز فى خياله ومفطور فى طبيعته ويقتضى ذلك بكره كل ما يعوقه كيف ما كان قوى أم ضعف واذا كان ذلك كذلك فلجميع الناس مطلوب واحد هم عليه متزاحمون والى الاختصاص به متسابقون وهم مع ذلك مضطرون الى مساعدة بعضهم بعضا اذ كان كل واحد كما ترى لا يمكنه ان يستقل بتحصيل جميع حاجاته سيما والانسان ضعيف البدن لا يقاوم سبعا ولا يكف عادية بهيمة فلو فرضنا انه يعيش فيما خلق الله من ماء وشجر يتغذى بالثمار ويستتر بالاوراق فكيف له بدفع السباع الكاسرة وكف البهائم العادية لا يتهيأ له ذلك الا بالاجتماع والمساعدة على اتخاذ أشياء تقوم له مقام أنياب السباع ومخالبها وقرون البهائم وما اختصت به تلك الحيوانات من قوة البطش وسرعة العدو وبعد الوثب الى غير ذلك مما خلا الانسان عن بعضه ومنه يتبين لك معنى قولنا ان المعلم الاول هو طبيعة الموجودات وحاجة الانسان فالناس بين مزاحمة تقتضى عداوة ومساعدة تقتضى محبة وهما الاصل الذى يدور عليه جميع اعمال الانسان فيجب اعتبارهما وادامة ملاحظتهما ومحاولة اضعاف الاولى اذ كانت أصل كل ضرر وتقوية الثانية اذ كانت أصل كل منفعة وذلك وان كان فى وجدان كل أحد وهو به شاعر وان لم يجد ان يعبر عنه فلا سبيل الى جعل جميع الناس يعتبرونه ويهتمون بتعديله فوجب افراد طائفة منهم لملاحظة ذلك وتعديله وضبط كل عند حد فان كانت هذه الطائفة عارفة خبيرة اجتهدت فى اضعاف معنى العداوة بضبط المزاحمة ووضع الحدود لها وتقوية معنى المساعدة وتلك الطائفة هى التى تسمى ملوكا وحكاما وأمراء الى غير ذلك من الاسماء وان كانت على غير تلك الصفة قوى أمر العداوة لسبقها وضعف أمر المساعدة ومن ذلك ترى ان جماعة من الناس فى عدد الاربعين أو أقل أو أكثر يأتلفون ويحب بعضهم بعضا على ان يتعيشوا بقوة أبدانهم وأسلحتهم ينهبون ويسرقون ويفعلون تلك الافاعيل فبمعنى المساعدة قد اجتمعوا ذلك الاجتماع وبمعنى العداوة قست قلوبهم على غيرهم فسلبوا أموالهم وسلوا أنفسهم وعروا أمكنتهم بعدهم أو تركوها يبابا بالعدم احتياجهم لها مع ان الجميع فى بقعة واحدة يسقيهم ماء واحد ويعيشون فى بركة تلك الارض ومن الحكم الالهية أن واتر ارسال رسل بدين حكيم يبثونه بين الناس كان من ثمراته تحويل معنى العداوة من بين الاشخاص وجعلها بين احزاب عظيمة لتكثر

منافعها

منافعها وتقل مضارها ويقوى معنى المساعدة فى كل حزب فانظر الى آثار رحمة الله فى ذلك ولطائف حكمته تجد ان تحويل العداوة وجعلها بين احزاب عظيمة كان سببا الظهور ما أودعه الله تعالى فى القوى الانسانية من العلوم والاعمال التى تراها لا تزال تتزايد يوما فيوما وبذلك قوى معنى المساعدة بين الاحزاب وأشخاصها قوة عظيمة من حيث يشعرون ومن حيث لا يشعرون فاذا عرفت ان العداوة بين الناس أمر فطرى تقتضيه المزاحمة والمحبة أمر طارئ تقتضيه المساعدة فكيف تخدعك الامانى الكاذبة وتهليك المطامع الفاسدة عن اعتبارهما وادامة رعايتهما وبناء الاحكام عليهما وتعقل الدين من جهتهما فانك حينئذ تفهم معنى الدين فهما حقا يمكن من قلبك محبته ويبعث اجتهادك فى تعرف اسرار أحكامه فى كل باب من أبوابه وحيث تقررت فى نفسك هذه المعانى وتحققت منها وان كانت بعبارة اجمالية فانت اذا لا محالة متمكن من تفصيلها وتفريع الفروع على أصولها ومن هنا تفهم قول الله تعالى فى الحكاية عن حالة آدم وذريته وفى اثناء ذلك وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الارض مستقر ومتاع الى حين فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه انه هو التواب الرحيم قلنا اهبطوا منها جميعا فاما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ففيه التنبيه على معنى العداوة واصالتها والتحذير من اهمالها حتى يقوى عملها وتعريف معنى المساعدة وايجاب المحافظة عليها باعمالها من الآثار الجليلة وذلك فى قوله تعالى فاما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون فان ذلك الهدى هو القانون الذى به ضبط المزاحمة وتحديدها بحدود تقرب من رضا الكافة واضعاف معنى العداوة وتقوية معنى المساعدة وأثر التمسك بذلك القانون ان يعم الأمن فلا يخاف أحد أحدا على نفس يسلبها أو مال ينهب منه وتقوى مادة السرور فلا يكون للناس حزن فما أجل ذلك الاثر وهو الأمن والسرور عدم الخوف والحزن وجميع الناس يطلبون ذلك ويدأبون فى تحصيله ولكن اختلفت بهم الاهواء وغلب على كثير منهم الشقاء بما تركوه من سلوك الجادة فى تقوية معنى المساعدة العامة تخيلا منهم ان المساعدات الخاصة توجب الامن والسرور وما أبين فساد ذلك وأظهر الغلط فيه فانك ترى الامة الواحدة متحزبة أحزابا صغارا من واحد وأتباعه وآخر وأتباعه يحاول ذلك الواحد تمام التمتع وكمال اللذة باعمال تلك الاتباع الذين لا يريد لهم الا ان يكونوا بمنزلة آلات من الحديد لا تسمح نفسه أن رضا ولا اقتضاء ضرورة انتفاعه

بهاان يصرف لها شيأمن الزيت والدهن لتقوى على العمل ويمتنع التهابها لشدة الحركة وبطلان الانتفاع بها وتلك الآحاد مع ماينهم وبين أتباعهم من العداوة والبغضاء يناصب بعضهم بعضا العداوة سرا أوعلانية فتراهم مشتغلين سائر أوقاتهم بالفكر المقلق والوسواس المحزن يحاول كل التغلب وقهر غيره وجعله من أتباعه فاذا وجد قوة لم يتأخر عن انفاذ ذلك وان لم يجد أخذ فى الاغتياب والانتقاد واستقباح الاعمال ما حسن منها ومالم يحسن فكيف تصفو لامثال أولئك معيشة وتطيب لهم حياة لا والله انما تكون مشيدات قصورهم وفسيحات جنانهم انما هو بمنزلة مضايق السجون ومهاوى القبور تلك حال أمة جعلت نفسها فى منزلة لو عرضت على البهائم العجم ما اختارتها ولاشتد عدوها فى الهرب منها أفيكون أولئك محسوبين من نوع الانسان وهم فى تلك الاحوال كلا وقد قرأت فى بعض كتب التعليم من كتب أمة تراها وقد ضعف أمر العداوة فيها حتى كاد يزول وقوى أمر المساعدة فشملتها السعادة وحفها حسد الضعاف الذين ينظرون الى سعادتها وهم قاصرون عن نوالها جملة هذه ترجمتها *سعادة الامة وغناها مرتبطان بالتربية من الصغر فلا تزال هذه الجملة قائمة الصورة فى خاطر يتكلم بها مع الانفاس ناطق المستور فاذا كانت هذه الجملة وأمثالها عالها من المعانى الشريفة يلقنها كبار الامة ومعلموها الصغارها المتعلمين يمكنونها من نفوسهم ويمزجونها بدمائهم فلاشك تكون الامة الناشئة بتلك التربية عارفة معرفة نافعة بمعنى المساعدة العامة التى هى مبدأ كل خير وأصل كل سعادة* وقد رأيت هذا المقام يستدعى زيادة تقرير لاستئصال شأفة الاشتباه فيما سلف من حكم حاصله أن بين أشخاص الناس عداوة تقتضيها المزاحمة ومحبة تقتضيها المساعدة والاولى سابقة لسبق مقتضيها وهما ضدان لا تقوى احداهما الا بضعف الاخرى وان من أكبر حكم الدين تحويل العداوة من بين الاشخاص وجعلها بين أحزاب عظام وان ذلك قد استعقب منافع جليلة منها ان كل حزب اشتغل بالاعمال التى بها يكون سعداء أعزاء وانصرفت أفكارهم الى ما به يقاوم من سواه من الاحزاب بحيث لا يتمكن كل حزب من التعدى على صاحبه وبذلك كثرت أعمال وتولدت أشغال وتزايدت الافكار فى ذلك ولولاه لبقيت جائلة فى جهات أساءة بعض الاشخاص بعضا والتماس الحيل فى الاستئثار بالمنافع والاختصاص باللاذ حيث كان الانسان مجبولا على ذلك وكثر الهرج والفتن وتسافك الدماء اذ يكون أمر الاشتراك العام مهمل

الجانب غير منظور اليه ولا ملتفت لتمكينه وتقويته فلا تكون المساعدة الا في أحزاب صغار تجمعهم أرض متقاربة الاطراف فلا تزال بينهم اغارات ومهاجمات واستيلاء فريق على فريق فبينما يكون قوم في نفوسهم أحرارا سادة متمتعين بحياتهم واطلاق تصرفاتهم اذ أصبحوا وأقوياؤهم قتلى وضعفاؤهم ضرب عليهم الرق ونساؤهم وذراريهم جواري وعبيد و يصير الاصلاح العام والهدء فيما بين الناس والامن القانوني أمرا مذموما وانما المفاخر والمكارم ومعالي الشيم انما هو الافساد وأخذ قبيلة ثارها من قبيلة لا بقتل قاتل ولا بكف عادية بل بافنائها واستلاب أموالها وأخذ نسائها وأولادها ماسلف وترك بلادها بلاقع موحشة ليس بها أنيس وكانت بالامس عامرة ناضرة كما كان ذلك في أمة العرب الى مبعث خاتم النبيين وسيد المرسلين صلوات الله وتسليماته عليهم أجمعين * ومن حكم ذلك التحويل أيضا ان آل الامر الى وحدة الفكر في معنى المساعدة فكاد معنى العداوة يضعف بين الاحزاب أيضا وانما يمنع من ضعفه وزواله ما هو مركوز في طباع العامة من كل حزب وأهل الجهل منهم ولم يجد ذوو البصائر سبيلا لمحو ذلك من قلوب العامة فكانت همتهم مصروفة لضبط الحزب وحفظ الموازنة بين الاحزاب وملاحظة حركاتهم حتى لا يتعدى أشخاص حزب على أشخاص آخر والى ذلك المآل أشار النبي صلى الله عليه وسلم حيث يقول اتركوا الترك ما تركوكم ودعوا الحبشة ما ودعوكم فان فيه الاخبار بأطراف المسافة التي يستقر فيها الملك الاسلامي وتعيين الحدود التي لا ينبغي ان يحاولوا مجاوزتها فانه متى تكافأت القوى وتقاومت العدد بحيث لا يطمع فريق ان يستولي على آخر ولا يتمكن من قهره واجراء أحكامه فيه كان النهوض اليه من باب الالقاء باليد الى التهلكة المنهي عنه ومن نصائحه صلى الله عليه وسلم قوله اذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم لا تكلف نفس الا وسعها فليس على الامة الا دوام رعاية الامر العام وادامة ملاحظة جهات الخوف والاحتراس باعداد العدد لسد ما عسى ان يكون من خلل و بيان تلك الاحكام من الكتاب العزيز في قوله تعالى كما سلف شرحه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو الآيات وقوله واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم أعداء الآية فذلك تصريح بالعداوة الشخصية وامتنان بتعريف ما يضعفها أو يزيلها وفي قوله وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وقوله يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون اليهم بالمودة تصريح بالعداوة الحزبية وكيف لا يتصور بين الاحزاب عداوة مع

ان حزبا عظيما مأمور بان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويقاتل على ذلك ويشتد
على من يليه من مخالفيه حتى يجدوا فيه غلظة يهابها ومن جهتها يخاف أن لا
يكون ذلك موجبا للاحتراس ودوام استشعار العداوة فان الضعيف المغلوب
المقهور ولا ريب لا يريد ذلك وتشتد كراهته له نفعه أم ضره فلو كان هنالك
سبيل لعموم الفهم حتى يضعف معنى العداوة ويقوى معنى المحبة لضبط المزاحمة
والمساعدة لسعى فى تعيينه ذوو البصائر وسلكته الكافة ولكن حيث كان
من كمال الوجود تحقق جميع الاضداد واستيفاء جميع الاقسام حتى صح للقائل
أن يقول ليس فى الامكان أبدع مما كان فان كل شئ بالغ نهاية كماله وليس
وراء النهاية ما يدخل فى حد الامكان وجب لهذا المعنى ان يكون فصل قوم من
قوم وتعيين ضابط لكل حزب يقوم به أهل الذكاء والفطنة الذين استعملوهما
فى معرفة الحكمة ولزوم الضبط وهدى الناس الى منافعهم وارشادهم الى
مصالحهم وحملهم على ذلك شاؤا أو أبوا وتحقيق ذلك فى قوله تعالى هو الذى
أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدا محمد
رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم فقد أظهره على الدين
كله وكان عليه الصلاة والسلام واصحابه رضى الله عنهم ومن على شاكلتهم
وسلك سبيلهم رحماء بينهم يأخذ كل بيد كل اتماما للمساعدة أشداء على مخالفيهم
الذين لا يزالون يريدونهم بالسوء ويناصبونهم العداوة ويدبرون فى مكايدهم
وأولئك هم المقصودون بالشدة عليهم والغلظة فى حقهم دون من أدخلته
المعاهدة فى معنى المساعدة حتى صار بمنزلة الجزء من الحزب فاولئك ينظرون
بغير تلك العين ويعاملون برفق المعاملة كما وقع الارشاد الى ذلك فى قوله تعالى
لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم ان تبروهم
وتقسطوا اليهم ان الله يحب المقسطين انما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى
الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على اخراجكم ان تولوهم ومن يتولهم
فاولئك هم الظالمون وأى احد لا يريد ان يكون محبوبا ويريد ان يكون ظالما
سوى من غلبت عليه اهواء حاضرة وشهوات وقتية فذلك هو مقتضى تمام
المحافظة على تأكيد الارتباط بين الامم حتى تنتفع كل أمة بما عند صاحبتها
حسب الحكمة الالهية فى تخصيص مبادى الانتفاع باعيان النواحى كما تراه
من وجود المعادن من الذهب والفضة والحديد والنحاس وغيرها موزعة على
جهات لا تكون فى غيرها وكذلك أمر النباتات المستعملة فى الادوية وحبوب
الاغذية وثمار التفكه وفى المروى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم سمع مرة

عليا يقول اللهم أغنني عن خلقك فقال يا على لا تقل ذلك فان الناس يحتاج بعضهم بعضا ولكن قل اللهم أغنني عن شرار خلقك وحنن على قلوب أخيارهم ثم ذلك يجب ان لا يميل بك الى التهاون فى المحافظة على مكانتك من الرفعة واهمال شدة الحرص على مقامك من علو الشان فان مغزى تلك الآية ومرمى الاشارة فيها الى ان تستشعر فى نفسك القوة والتمكن اذ لا يؤمر بالبر ويرغب فيه الا من كان قادرا على العقوق وكذلك لا يؤمر بالقسط الا من تمكن من الجور فلابد مع المرحمة واللطف فى المعاملة من تحصين أسباب القوة واتمام العدة لما عساه أن يكون ويقدر حصوله من خلل كما سلف التنبيه عليه غير مرة فليس بعد هذا اشتباه فى ان ذينك الاصلين يجب اعتبارهما وبناء الاحكام عليهما والدخول فى تربية الامة من بابهما والاجتهاد فى تقوية معنى المساعدة وتفهيمه لمن يكون فى الامل فهمه من كافة الامة أو اكثرها او مقدار عظيم منها حيث أدت التجربة الى معرفة ان كثيرا من الناس مخلوقون لاستعمال أبدانهم فلا يأمل آمل ولا يطمع طامع فيهم غير ذلك فهم مسوسون مربوبون مصرفون فيما خلقوا لاجله وفى غير ذلك معارضة للحكمة وتمكين للمفاسد من رقاب المصالح (واذا تقرر ذلك) حسن التكلم فى التربية الانسانية (فنقول) هى بمقتضى كونها نوعا من مطلق التربية تبليغ الانسان حال كماله تدريجا ولا نريد تربية بدنه فانها من التربية الحيوانية وان كانت تفارقها بكون المزاج الانسانى محتاجا الى أنواع شتى من الاغذيه يختص بعضها بوقت دون وقت ومكان دون مكان وحال دون حال بخلاف الحيوان فانه يكتفى بانواع قليلة من الاغذية والكافل ببيان ذلك ورعايته هم طائفة الاطباء وانما نريد تربية نفسه وذلك من صناعة العلماء واذ كان حد التربية ذلك فاركانها الانسان المربى والانسان المربى وما به التربية وأما الكمال الذى هو غايتها فهو لا يكون ملحوظا للمربى ومطلوبا للمربى ومعتبرا فيما به التربية ان يرى الانسان رؤية تامة ويجد فى طبعه وجدانا ثابتا أن امته بمنزلة جسم هو بعض أعضائها فكما ان لكل عضو من أعضاء الجسم وظيفة يؤديها بالطبع لا يرى بعض الاعضاء لعمله شرفا ولا يرى الآخر فى عمله خسة كل سهل المضى فيما خلق لاجله فاليمين من اليدين لا تفتخر بمباشرة مثل الكتابة وتناول الاطعمة والاشربة والشمال لا تأنف من الاخذ بالانف ومخامرة ما منه الطهارة والارجل لا تحتقر ملامستها الارض لاداء وظيفة المشى كذلك أشخاص الامة يجب ان يكون كل ماضيا فى وظيفته يعرف انه لا يمكن ان يصل الى كمال منفعته الا بعد كمال منفعة الامة كما أن

العضو لا تصل لمنفعته الا بمنفعة الجسم وكل وهن يلحق عضوا من الاعضاء فانه يؤلم سائرها ويشعر بذلك ويطلب الخلاص منه وكذلك الاشخاص لكن لكون الارتباط بينهم معنويا ليس محسوسا كارتباط الاعضاء فربما يألم الشخص بألم غيره ثم لا يدري من أين أصيب أو يدري ويغالط نفسه فذلك هو الكمال الانساني وما له ان يعرف معنى المساعدة وأسبابها ويكون عمله لها دائما لا ينصرف عن ذلك فكره والاساس الخلق والعمل فالخلق العدالة وهي ضبط قوتي الغضب والشهوة وجعلهما تحت أمر القوة العاقلة لا يستعمل واحدة منهما الا على حسب ما تحده وتحكم بحسنه فيسمى الانسان حينئذ حكيما بمعرفة عقله عفيفا بضبط شهوته شجاعا حليما بضبط غضبه كما قيل

عامل الناس بأخلاق الرضا ❊ تملك الاحرار من غير ثمن
لا تقل في الحلم ذل انما ❊ ساد أهل الحلم في كل زمن

واذا تقرر ذلك فالبيان يستدعي رسم ثلاثة أبواب باب للانسان المربي وهو الشيخ وكيف يجب ان يكون وباب للانسان المربى وكيف يجب ان يكون أيضا وباب لما به التربية

﴿باب المربي﴾

هو انسان أكمله التربية يحاول ان ينقل صورته ونظام أحواله الى غيره ليكون خلفا منه فان لم يكن وهو غير كائن فان أمر التربية مهمل والناس متركون للصدفة وكيف لا وليس لاحد فكر في معنى الوطنية والحماية والانسانية اذ غاية الواحد أنه متردد بقائد الضرورة وسائق الحاجة في تحصيل ما يعيش به ويمسك رمقه وقد رسخ في طبعه حب النزاع والاستلاب والاغتصاب والاختطاف والاستئثار وقهر الغير والاستيلاء الى غير ذلك من الرذائل وانما يصده عن ذلك ما قام به البعض بدلالة هذه العدوانات من الضبط وكف الناس عنها فترى المحكوم خائفا يترقب ولولا ذلك لطغى وترى الحاكم مجردا سيف الانتقام لا يهمه غير ذلك ولولاه ما خيف مع أنه يجب ان يكون معظم نظر الحاكم في تقوية المنافع وتكثير الخيرات حتى تمحو الرغبة فيه الرهبة منه ويكون الانقياد انقياد محبة وأدب حتى يكون الانسان في حالة يمتاز بها عن الحيوان على انا نرى بعض الحيوان يصل بالتمرين لان يكون انقياده أدبيا ولو أنهم عرفوا معنى الوطنية ما كنت تجدهم يستطيعون ان ينظروا الكثير من الاماكن بين منازلهم ومساكنهم خربة تسكنها الحشرات ودواب التراب سيما وكثير منها مساجد قد عطلها عدم الحاجة اليها أو قلة دين جيرانها أو

اغتصاب واضعيها أرضها وظلم الناس فى اقامة بنائها فان المساجد بحسب أصل الدين وعمله الاول يجب ان تكون أرضا اجتمعت الكافة على اتخاذها بيت عبادة واجتماع وأن يكون بناؤها بسيطا خاليا من النقش والزخرف وكل ماينبئ عن سفه فاعله غاية الامر أنه يلزم أن تكون طاهرة نظيفة نقية مما ينكره الشم ويقتحمه البصر وتكون أعز على الناس من مضاجعهم ومأوى أبدانهم ولوانهم عرفوا معنى الحماية وضرورة هذه الخدمة وشرف القائمين بها ومكانتهم من الامة بان يتصوّروا أن وطنهم الذى أنبتهم ترابه وعاشوا فيما يخرج لهم من نبات وحيوان وهو مرقد أجسام آبائهم ومسرح أبدان أبنائهم يستدعى منهم أن ينظروه نظره ويحرصوا عليه ويعرفوا كيف يكفون الاكف العادية عن تناوله والانتفاع به دون أهله وبذلك التصوّر كنت ترى أنهم يبادرون لان يكونوا عسكرا ويدافعون من يمنعهم عن ذلك مدافعة كما فعل عبد الله بن عمر فيما رويناه من خبر حيث استعرض رسول الله صلى الله عليه وسلم جيشا الغزوة فكان لايجيز الاذوى سن وكان عبد الله بن عمر لم يبلغه فردّه فجزع جزعا شديدا ثم عاد يعرض نفسه ثانيا وهو يتطاول ويقف على أطراف أصابعه يرى أنه قد تأهل لأن يكون بعض الجيش رغبة فى شرف هذه الخدمة لا كما تراه اليوم اذا توجه الطلب لواحد ليقوم بهذه الخدمة من اجتماع أهل الناحية فى بكاء وصراخ يقولون لومات وعرفنا مكانه لكان أهون من هذا وعذرهم فى ذلك عدم التربية ومعرفتهم غايات الاعمال وان ساستهم يتصرفون فيهم تصرفهم فى البهائم العجم ينقلونهم حيث شاؤا ويقلبونهم فيما أرادوا ويعاملونهم بسوء المعاملة واذا دافعوا بهم فانما يستعملونهم استعمال الآلات الخالية من الادراك لايدعون لاحد فكرا فى شئ انما هو الامر والتوجيه فان أقدم العسكرى فى يد أجله والا اختلى رأسه من وقف خلفه مسلولة سيوفهم من الضباط ولوأنهم عرفوا الانسانية وتصرفوا من جهتها لوجدت الناس فى رضا مريح واطمئنان مرفه لا كما تجده من انقباض بعض الناس من بعض وانزوائه عنه متباغضين متحاسدين لاينظر أحد لغير مصلحة نفسه مرتكبا لها مايكون من خسة ودناءة سيما فى الطائفة التى كان يجب أن تكون أخص الناس فى مدارج الانسانية وأبعدهم من الاغراض الخاصة وأشدهم نزاهة عن سفاسف الامور بحيث تستنير قلوبهم ويتلاقون بها صافية متحابة متعاطفة جميع أفكارهم ونطق ألسنتهم فيما تحسن به أحوالهم ويفيدهم رضا الكافة عنهم اذ تكون همتهم أن يسعوا بين الناس بتعريفهم

منافعهم وأسباب كثرة الخير فيهم محتالين بما أودع الله فيهم من حسن نظر ودقة ادراك لمنع طرو الخلال السيئة والمبادرة بمحو ما اختلسته الطباع منها وحين ذلك تدر عليهم الارزاق وتنبسط بينهم النعم لا كما هو حاصل الآن وبسببه ترى أنه متى غلط الزمن بفتح باب رزق لواحد رأيت كثيرا منهم يختلف الى وسائل شتى بكيفيات مختلفة ليدخلوا من هذا الباب مع أن النداء لواحد بعينه فهم يتزاحمون كل لمنفعة نفسه وهو متحقق من اضرار غيره فربما استدرك الزمن غلطه فقفل هذا الباب في وجوههم فرجعوا جميعا محرومين مأسوفين وبعد معرفة بعضهم ما كان من بعض يتلاقون متقارضين تبسم الغل وبشر الضغن يود أحدهم لو شرب دم الآخر اللهم أخل الارض من تلك السيآت وأحسن على الامة بغير هذه الاحوال وألهم القلوب محاسن الاسلام ومعالى الدين حتى تظهر عليهم بركة امتثال قوله صلى الله عليه وسلم تعلموا ولا تحاسدوا ولا تباغضوا وكونوا عباد الله اخوانا * فعلى ذوى البصائر أن يستأنفوا النظر ويشتدوا فى البحث والتفتيش عن رجال أذكياء فضلاء تصرفت بهم الايام وتقلبت عليهم الاحوال ونظروها نظر اعتبار فاستحسنوا واستقبحوا وأخذوا وتركوا وظهر للناس جودة اختيارهم ليسلموهم هذه الخطة أى خطة التربية ليستأنفوا عملا جديدا ويسعوا فيه سعيا حميدا بملاحظات دائمة وأعمال مستمرة وتلطفات موصلة لاجمل الاحوال فلن يلبثوا أن يجدوا من ذلك الصنف من يكونوا بمنزلة البذر فان لم يفعلوا فكأنهم بأوطانهم وقد صاروا فيها عبيدا لغيرهم برهة تذبح أبناءهم وتستحيى نساءهم وبالآخرة تعفوا آثارهم ومن مثل ذلك الاهمال صار ما صار فى بلاد الاندلس التى عظم فيها الاسلام عظمة لم يعظمها فى غيرها حيث كانت تلك العظمة بالصدفة والاتفاق وهمم النشأة دون أن تكون على أصل متين وأساس محكم يبنى المتأخر على بناء الاول ويعتنى الجميع بعناية واحدة واللاحقة أشد من السابقة فى اقامة ذلك البناء وتمكينه وتدارك ما وهى منه ان كان بالترميم والاصلاح وانا نحمد الله سبحانه وتعالى أن أقام بيننا ما يرشدنا للاحتراس عن مثل ما وقعت فيه تلك البلاد فهذه الاهرام تخبرنا ان قوما وضعوا اساسها بعد تعيين الفكرة فيها وتركوها لمن بعدهم فبنوا على ذلك الاساس بتلك الفكرة حتى تم بناء يقول فيه القائل

بناء يخاف الدهر منه وكل ما * على ظاهر الدنيا يخاف من الدهر

كم حاول ناس أن يهدموا ذلك البناء وهو يضحك منهم ويهزأ بهم ويسجل عليهم بالسفه فنشرع بذلك الفكر ولا نيأس من روح الله جل وعلا وهو يقول

ان

ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم فمن البديهى أن التحاسد علة التعادى والتباغض وضيق الرزق وقلة الخير وعدم الانتفاع بما يوجد منه وان التعاون والترافق والمساعدة سبب التواد والتحاب وسعة الرزق وكثرة الخير وتمام الانتفاع بما يكون منه وباستحضار ذلك واستتباع بعض الاحوال بعضا استتباعا ضروريا واستحقاقا باقتضائيا نفهم قوله تعالى ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وندرك حكمة قول القائل من نظف ثوبه قل همه ومن طاب ريحه زاد عقله أليست النفس تنبسط لما يلائمها وتفرح بما يوافقها وهل لقوة الادراك وهى زيادة العقل سبب سوى انبساط النفس وفرحها وهل يذهب الافكار ويمحو الادراك الا وقوع النفس فى الاكدار واذا تبينت كل التبين ان الاحوال سيئها وحسنها يستتبع بعضها بعضا وهذا ما يمكن أن أقول فى باب المربى الذى نبتهل الى الله سبحانه وتعالى فى تسهيل حصوله واهتداء الناس الى من يجب أن يكون

﴿باب المربى﴾

المربى هو ناشئ بلغ من السن أوان امكان أن يثبت فى نفسه ما يسمعه وما يراه ويعرف الارتباط الوضعى بين الالفاظ والاشياء بحيث متى حضر عنده الشئ حضر لفظه ومتى حضر اللفظ حضر ذلك الشئ وحينئذ يبتدئ مربوه أن يلقنوه الاشياء المشتركة بين جميع أشخاص الناشئة فتى بلغ سن التمييز وأوان التعقل فعلى من يريد تربيته التربية الخاصة ويحاول فيه كمالها أن يتأمله ويكرر فيه دقيق نظره حتى يتبين لما قته لاى عمل من الاعمال التى يقوم بها اصناف الناس لينفع بها بعضهم بعضا ولا أقول ان ذلك بأخذ طالعه كما يفعل المنجمون ولا بخط رمل ولا بشكل زايرجة الى غير ذلك مما يدعى به بعض الناس معرفة الغيب ولكن أقول ان الشجاعة والجبن والذكاء والغباوة والفطنة والبلادة الى غير ذلك من الاحوال الانسانية أمور متضادة لها أصول فى سنخ الطبع ولا بد أنها تظهر على أصحابها ونراها فيهم ونجدها منهم لا تحدث بتعليم ولا تعويد ولا شك أن كل جسم ظهرت فيه حالة من تلك الاحوال له وضع خاص به وهيئة بها ينفرد فاذا ضبط ذلك الوضع وحفظت تلك الهيئة كان فى ذلك دليل على أن هذا الجسم صاحب تلك الحالة ﴿ وبيانه بعض البيان ان رؤس الناس مختلفة الحجم والشكل فمنها الصغير والكبير والوسط ومنها المستطيل والمستدير وما بين ذلك وجباههم منها المعترض المستطيل والناتئ والمنخسف وحواجبهم منها الغليظ والدقيق وفيها اختلاف من جهة الميل وقرب بعضها

من بعض حتى تقترن أو يكون بينهما البلج وكذلك عيونهم تختلف اتساعا وضيقا وكبر مقلة وصغرها وطول أهداب وقصرها وفي بياض المقلة وسوادها وما يكون من شهلة وشكلة وزرقة وخضرة وصفرة اختلاف عظيم وأنوفهم منها الاشم والاقنى والافطس والطويل والقصير الى غير ذلك من أشكال الاعضاء وكيفياتها متناسبة وغير متناسبة وهنالك يكون الجمال والدمامة فتى استحكم تناسب الاعضاء كان تمام الجمال ومتى اشتد تفاوتها كان تمام الدمامة وعلى دلالة الجمال والدمامة وانبائهما عن الاحوال النفسية يقول القائل ماوراء الخلق الدميم الا الخلق الذميم فعسى أن يشتغل بعض أذكياء الناس وأولى البصائر منهم بضبط تلك الأوضاع والهيئات وما استتبعت من الاحوال النفسية ليكون فنا يدرس وعلما يحفظ وقد التفت لذلك بعض القدماء التفاتة يسيرة وكتبوا فيه أشياء قليلة في رسائل صغار وسموه علم الفراسة وعلم تخطيط الانسان ومن الناس من له في ذلك ادراك عظيم وجداني يشبه الالهام حتى أن بعضهم يتكلم بما يكون للانسان في مستقبله من متجددات الاحوال فلو استكمل ذلك الفن كان له في باب التربية ثمرة عظيمة فان من الناس من هم مخلوقون لاستعمال أبدانهم في الاعمال الشاقة فيهم من القوة على مزاولتها ومحاولة اظهار ثمراتها ما ليس لغير نوعهم تراهم ضاحين للشمس أى أوان وكيف كانت لا يبالون لها أثرا ولا يعرفون بها ضررا يأكلون ويشربون وهم عن الاعمال الطبيعية غارون غافلون انما يذكرهم منبه الجوع فيتناولون الاغذية فاذا وقع الاكتفاء واشتدت نفرة النفس من الزيادة أدركوا الشبع وأقبلوا على عملهم وأثناء ذلك يتهيأ لمدبر أجسامهم أن يجد عمله في تقويتها وتمتين أعضائها وأولئك يجب ان يتركوا وما خلقوا لاجله لا ينبغي ان يكلفوا اعمالا عقلية ولا يلزموا اشغالا فكرية انما يساسون سياسة الحيوان الذى يأخذه الانسان بآداب متقاربة وعوائد قليلة حتى يمكنه الانتفاع بما ضبطه من حركاته مثلا يأخذ الجمل بادب انه يبرك عند ارادته ذلك منه واظهار الاشارة التى عوده ان يفعل عندها ذلك الفعل وان يقوم عند اشارة القيام وان يمشى عند اشارة المشى ويقف عند اشارة الوقوف وهكذا وبذلك النظر قال بعض الحكماء ان صانع العالم وزع طباع أجناس الحيوان وخواصها فى اشخاص الناس فمنهم من غرز فيه طبيعة الجمل وخاصته ومنهم من غرز فيه طبيعة الحمار وخاصته وهلم جرا قالوا ويعرف ذلك من شخص الانسان اذا أزعجته وهو غافل أو نائم فانه عند ذلك ولا بد يعمل عملا

من

من أعمال ذلك الحيوان الذى غرزت فيه طبيعته وخاصته و بالسياحة فى اخلاق نوع الانسان تجدان بعض الاشخاص ربما كان اسوء حالا من أبلد حيوان واجبنه فكيف ينبغى لاحد ان يرى مع ذلك امكان اشتغال جميع الناس بالاشغال الفكرية ذلك قصور او تقصير ❊ وعند الانتهاء الى هذا الحد من الابانة أقول ان الانسان الذى يراد تربيته تربية عقلية فكرية يجب ان يكون انسانا فيه العلامات الدالة على حدة ذكائه وشدة فطنته كأن يحفظ كثيرا و يتذكر سريعا و يدرك من الاشارة ما يفهم بالعبارة فانه ربى على ان يكلف ضبط كثير من الاعمال وما لها من الثمرات وكيف تتفاوت فى الجودة والرداءة وكيف يعرض فيها الخطأ وتمضى بها الاصابة و يقال ان بعض الناس المعلمين يرصدون الانسان المتعلم حتى يدركوا رغبته فى اى شئ و يعرفوا ميله الى اى عمل وعند ذلك يقصرونه عليه و يساعدونه على اتمامه وذلك ان صح يكون عملا مفيدا يجب ان يعمله جميع المعلمين حتى يتقرر ذلك الفن الذى يمكن ان يبنى عليه ابتداء العمل فى تربية الانسان دون اضاعة زمن من زمن التعلم طال أو قصر حتى تدرك رغبته و يعرف ميله ❊ ومن الشواهد التى أقيمها على تفاوت الانسان فى قبول اصناف الاعمال ونفع الانسان فى بعضها دون بعض ما اطلعت عليه فى اشخاص أرسلوا الى جهات بعيدة ليتعلموا هنالك بعض العلوم فبعد الكد الشديد والجهد الجهيد لم يمكن ان يعرفوا شيأ من تلك العلوم العقلية التى يلزم لها قوة الحفظ وسرعة التذكر وقرب الفهم ثم ادرك فيهم ميل لبعض الصناعات اليدية التى يكفى لها ادراك الصور المبصرة واستثباتها فى نفوسهم فوجهوهم اليها وساعدوهم على اتمامها فجاؤا فى تلك الصناعات مهرة مهارة غريبة لقيت فى بعض الايام منهم رجلا صائغا صنع لبعض أصحابى بعض آنية من الفضة ذات شغل عجيب ونقوش محكمة وهيآت لطيفة ثم كلمته فلم أجده يحسن العبارة وليس له فكر فى غير الطعام والشراب وما يجرى له من الاحوال بينه وبين أهل بيته وشكوى تنغيصهم عليه وقلة معرفته بما يخلصه من أذاهم و يرضيهم عنه ليس له فكرة فى غير ذلك ولا كلام فى سواه فسألته انك أرسلت الى تلك الجهات لماذا فقال لأتعلم علوم المدارس فمضى لى زمن طويل بها وأنا لا أعرف شيأ وكنت أذهب الى الصاغة احيانا فلت الى صناعتهم فلما عرف منى ذلك شغلونى بها فأحسنتها وكذلك رأيت منهم رجلا يصنع الساعات و جرت بينى و بينه تلك المحاورة بعينها بعدما وجدته متورطا فى افكار ذلك الرجل الصائغ محفوظا

فى دائرتها لا يتجاوزها الا الصناعة ورأيت من الناس من يمر فى الطريق البعيدة الكثيرة العطفات مرة واحدة فتثبت صورتها فى نفسه فاذا عاد اليها بعد سنة أو أكثر لم يخطئ منها موضعا فسألته فى ذلك فقال ان جميع الصور التى يتناولها بصرى عند المرور فى الطريق تثبت فى نفسى ولا تزول فتكون تلك الصور لى علامات على الطريق قال ذلك بعبارة هذا معناها * ثم ذلك الانسان متى رأى شيأ من الصناعات كالحياكة والنجارة سهل عليه ادراكه وعرف العمل فيه فله جملة صناعات منها وذلك بعد ان أحضره والده الى الجامع الازهر فاقام فيه مدة وهو لا يضيع وقتا دون قراءة فى الكتاب ومطالعة وحضور درس ثم لم يدرك شيأ ولم تعلق بذهنه مسئلة * ثم اذا تعين المتعلم وما يليق ان يشتغل به فلا بد من تعيين مدة بانتهائها ينتهى تعليمه ويرسل للانتفاع بما عرفه ويكون عضوا من اعضاء الامة تعتبر اعماله ويضرب لها قيمة فيتم به نظام ثم على مربيه ان ينظر ما يجب ان يشغل به أول مدة التعليم ووسطها وآخرها فان الانسان يكون أول أمره مشغولا بصور الاشياء فرحا بالاطلاع عليها وحينئذ لا ينبغى ان يشغل الا بالحفظ واثبات تلك الصور كما قيل

وكل ما يحفظ فى عهد الصغر * يثبت فى النفس كنقش فى الحجر

فاذا حفظ جملة صالحة مما يراد تعليمه اياه وحينئذ يكون قد بلغ وسط المدة ابتدأ مربوه فى تفهيمه ذلك المحفوظ بلطف وترتيب دون املال ولا كثرة تعليل انما يفهمه القواعد مجردة مرتبة لا يشتغل معه بتفهيم قاعدة الا بعد ان يفهمه ما تتوقف عليه من القواعد مثلا اذا أراد ان يعلمه النحو لم يجز له ان يورد عليه عند الشروع فيه والتبرك بالنطق بسم الله الرحمن الرحيم بعد ان قال له أريد ان أعلمك النحو وعرف المتعلم هذا الاسم ما يورده المعلمون عند ذلك من قولهم الباء حرف جر أصلى أو زائد ويسترسلون فى تقرير ذلك وترجيح أحد الوجهين ما للمبتدى هداهم الله ولذلك الكلام الذى ينفره وبه تستشعر نفسه اليأس من امكان التعلم وبه يرى صعوبة العلم ويحصل اغتمام نفسه من حرمانه مطلوبه اذا كان فيه رغبة صحيحة وميل للتعلم وانما يجب ان يعرفه أولا ان هذه الالفاظ التى تجرى على ألسنتنا متنوعة أنواعا بعضها يسمى حروفا وبعضها يسمى أسماء وبعضها يسمى افعالا فانواع الالفاظ ثلاثة حروف وأسماء وافعال ثم يعرفه علامات ظاهرة محسوسة تميز كل نوع من صاحبيه ولا يشتغل معه بتعريف تلك الانواع تعريفا بالحد وتمييز حقائقها اذ يعسر عليه فهم ذلك وتنفر نفسه وذلك هو الذى يجب الحذر منه فان النفس متى نفرت كان قسرها

على

على التعلم عبثا أو أقبح من العبث فانه لا يتهيأ لها قبول ولا يؤمل منها ادراك بل اذا عرف ذلك القدر اليسير نقله الى تعريفه وتفهيمه ان اللغة العربية ليست مثل هذه اللغة التى نتكلم بها فانها وان كانت ألفاظها ألفاظ اللغة العربية ليست هيئتها هيئة تلك اللغة وانما هى هيئة فاسدة تسمى لحنا وتحريفا وتصحيفا واعتبر ذلك بهيئة القرآن الشريف التى نقرؤه بها ولا يجوز العدول عنها مثلا لا نقرأ الحمد لله رب العالمين برفع الدال من الحمد وكسر الهاء من لفظ الجلالة ونقرأ فسبح بحمد ربك بكسر الدال ونقرأه والله برفع الهاء من اللفظ الكريم فلا يجوز أن نقرأ الحمد لله بالنصب أو الحمد لله بالكسر فهذه الحركات اللازمة فى التراكيب المختلفة ما ثبت منها دائما يسمى بناء وما تبدل منها يسمى اعرابا ويعتنى معه هكذا بتقديم ما ينبغى تقديمه وتأخير ما ينبغى تأخيره فاذا أتم أبواب النحو يكون قد عرف حروف الجر وحروف النصب وحروف الجزم وما يكون منها زائدا ليس له معنى وله غرض فى الكلام وفائدة وغير زائد له معنى يعد فى معانى الجملة فاذن يرجع به لتطبيق ما عرف من القواعد فى كلام ينشؤه فيه نصائح وآداب وآيات سهلة الاعراب واشعار كذلك وعلى هذا قياس جميع ما يريدان يعلمه اياه ويربيه به ويحاول فيه كماله ليكون له صنعة بها يتعيش ويعود على الناس نفعها فانه لا يتعيش الانما فى أيدى الناس وهم لا يرسلون من أيديهم شيأ الا بثمن ينتفعون به ويحبونه لاجله ويمدحونه بكونه ركنا من أركان المساعدة وعضوا من أعضاء المنفعة وقد قيل

والناس أكيس من ان يمدحوا رجلا ❊ حتى يروا عنده آثار احسان

فلابد ولا ريب فى تحصيل الانسان رزقه من عمل يعود على الناس نفعه حتى تكون الامة باجمعها عاملة ماضية مع الحكمة الالهية فى جعل هذه الدار دار عمل ومن كلامه صلى الله عليه وسلم ان الله يكره العبد الفارغ الذى هو ليس فى عمل دنيا ولا فى عمل آخرة وما وراء ذلك فطامع كاذبة وأمانى خادعة أيحاول الانسان أن ينتفع بالناس دون ان ينتفعوا به ذلك ما لا يكون ولولا ان الناس يعتقدون ثواب الآخرة ويجعلونه ثمنا الصدقاتهم لهلك بعض الناس جوعا وهم المشتغلون باعمال ليس لها نفع حاضر والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم

﴿ باب ما به التربية ﴾

هو آخر باب تدخل منه الى بحبوحة المعارف التى بها صلاح دنيا الامة وسعادة أخراهم والمسؤل من واهب المنن جل وعلا ان تصحب عنايته جملة عظيمة من أذكياء شبان الامة وفطنائهم حتى يصلوا الى هذه البحبوحة ويقفوا على

مفصلات بعض أنواع هذه المعارف ومجملات باقيها ثم يعودوا أدلاء مرشدين
غيرهم حتى يصلوا بهم الى ما وصلوا ويقفوهم على ما وقفوا عليه محكمين توزيع
أنواع تلك المعارف مفصلة على طوائف يعرف بعضها بعضا بلزومها واحتياج
البقية اليها حتى يكون تصور الجميع ان كل أعمالهم على تنوعها واختلافها
كانها عمل شخص واحد ذو غاية واحدة فانه لا تمام لاعمال طائفة الا باعمال
سائرها والغاية واحدة هى صلاح دنيا الامة وسعادة أخراها فلم يكن هذا
التصور مستحكما ولم تكن الاعمال مبنية عليه لم يمكن تحقق الامة ولم تحصل
تلك الغاية (وبيان) تلك المعارف التى بها التربية الانسانية على الاجمال
والاشارة ومن جد وجد ومن تأمل تحصل ومن تفكر تذكر بان نقول ان بعض
تلك المعارف يجب الابتداء بها وتعميمها السائر الناشئة والبعض الآخر يوزع
على طوائف اذ لا يمكن لاحد أن يقوم بجميع تلك المعارف كما قيل

والعمر عن تحصيل كل علم ❁ يقصر فابدأ منه بالاهم

المعارف التى يجب الابتداء بها وتعميمها السائر الناشئة هى ما به تهذيب
اخلاقهم بتعيين أحاسنها وتجربة رديئها اغراء بالاولى وتمكينا من الحرص عليها
بتعريف ما لها من الفوائد والمنافع الدائمة وتحذيرا من الاخرى وتنفيرا عنها
بتعريف ما لها من وخيم العواقب وسئ الغايات وبتلك المعارف أيضا تتميز
الامة عن غيرها من الامم ويعرف لها شأن وقيمة وتستحق اسما يملأ النطق به
الافواه وتستوفى مهابته وجلالة شأنه القلوب * وتلك المعارف هى أن لنا الها
حكيما أمرنا على لسان أصفياء اصطفاهم من بين خلقه بما هو لنا صلاح ونهانا
عما هو لاحوالنا فساد ذلك رب العالمين منشؤهم وحافظهم ومبقيهم
باحسانه اليهم وافضاله عليهم وأولئك رسله المكرمون وأنبياؤه المعظمون
صلوات الله عليهم أجمعين ورحمنا ورضى عنا بلزوم الاخذ بحجزهم والمضى فى
آثارهم لم يبلغونا عنه الا الامر بما ينفعنا والنهى عما يضرنا دون أن يصل اليه
شئ من ذلك جل وعلا فهو الغنى الحميد فوجب علينا أن نستقرى تلك الاوامر
والنواهى بجهة انها منافعنا ولا نغفل عن حكمها وغايتها أمرنا أن نطهر أبداننا
وثيابنا خصوصا ما يبدو منها من جميع الارجاس والاوساخ والادران حتى
لا تنفر العيون من منظر شعث والانوف من مشم كريه ومن ذلك الوادى والعناية
بالحذر مما يوجب نفرة ان أمرنا باستعمال الطيب وتلك الطهارة الظاهرة علم
منصوب يذكر بالطهارة الحقيقية التى هى صفاء القلوب وخلوص الطوايا من
الغش والنفاق والخداع والاحن والاضغان والاحقاد الى غير ذلك من

لاحوال التى هى مبدأ الافتراق واستحكام الفساد ورسوخ الشقاء فى الدنيا والآخرة وغاية الطهارتين انشراح صدور الناس فى أنفسهم ومسرة بعضهم ببعض حتى اذا تلاقوا لم يقتصروا على التحية الكلامية والمصافحة بالايدى وهمت بهم المحبة والود الصحيح الاسلامى العقلى الذى بمعرفة حكمته وادامة ملاحظة فوائده وثمراته لا يلبث أن يفوق الطبيعى ويكون فى درجته التى يسمى فيها عشقا به يكون للبعد ألم وللقرب لذة فاذا رضى الانسان من نفسه طهارة بدنه وثوبه وطيب رائحته وكان على أحسن ما يمكنه كما حدله الشارع وبين وأوضح فقد استعد أن يتلقى الامر ويمتثله بان يستكمل الهيئة ويأخذ زينته ويستوفى كمال زيه كما جرت به السنن ثم ينهض بتلك المحبة وذلك الود الى بيوت اذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه وهى المساجد ليجتمع الناس هنالك يحيى بعضهم بعضا ويتذاكرون الآدب ويتحدثون فى تصاريف الاحوال العامة ويقوى بعضهم بعضا على الجد والنهوض فيما اختص به من عمل كما كان الحال حيث يجتمع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه وذلك فى كل يوم وليلة خمس مرات تعهدا للانفس التى من شأنها الذهول والغفلة والسهو وتحفظا على القلوب من مسارقة الهوى والميل مع الدنايا وتمكينا للالفة بالمؤانسة وارتفاق بعض الناس ببعض واستعانتهم على دفع ما عسى أن يلحق بعض الناس مما يكدر صفاء وقته ويغص عليه عيشه فأنت ترى أن الاجتماع للصلوات ليس للقومة والقعدة والانحناء والتمثل فى تلك الاشكال فان ذلك بمجرده لا ترى له منفعة عائدة لا على الله وهو الغنى الحميد الذى لا ينفعه شئ ولا يضره ولا على الناس فان قيل ان فى هذه الحركات رياضة للابدان واعانة على هضم الاغذية وتسهيلا لنفوذ الخلاصات الى الاعماق فحركاتهم فى أعمالهم التى من جهتها يتعيشون كصناعة الصانع وزراعة الزراع أولى بهم وأحق وأمكن فى تحصيل ما ذكر فانه مع ذلك لا يكون قد انقطع عن ملاحظة معيشته فلم تكن تلك الاعمال والاجتماعات الموسومة باسم العبادة الا لتحقيق الاخبات والخشوع وخضوع بعض الناس لبعض والتزام الآداب للتعاطف والتراحم والتعاون على البر والتقوى والتباعد والتحاشى عن مهواة التعاون على الاثم والعدوان المقابلين للبر والتقوى والضد يتميز بالضد فالبر كل ما يسميه جميع الناس خيرا والناس اهل العقل والفطنة والمعرفة بالمصالح والمفاسد وعواقب الاعمال ومستتبعاتها فما ليس خيرا فى نظر أولئك هو الاثم والعدوان هو تعدى بعض الناس على بعض واهمال رعاية جانب الحقوق والاختصاصات

فالتقوى خلاف ذلك وحيث كان اجتماع جميع الناس فى المساجد فى كل يوم لا يسهل مع مالهم من الاعمال المعاشية وقد قال صاحب الشرع الدين يسر كان ذلك الاجتماع مطلوبا من الجميع اذا قام به البعض حصلت به الكفاية فى امتثال الطلب ومثل هذا يسميه العلماء فرض كفاية وسنة كفاية وأمروا بالاجتماع فى كل أسبوع يوما يكثر فيه الجمع وتتلى على مسامع الناس الخطب يتلوها عقلاؤهم وذو المعارف منهم يأمرون الناس بالخير وينهونهم عن الشر ويحثونهم على التحفظ بمعنى المساعدة والتحذر من نزغات الشيطان باسباب العداوة واذا احدثت حادثة توجه الخطباء للكلام فيها والاهتمام بابانة طريق التخلص منها ان كانت من حوادث الأذى واذا كانت من حوادث المنفعة والخير وتمام السعادة أمروهم بالحرص عليها والاجتهاد فى انمائها وطلب ثمراتها فيكون الخطيب أبا رحيما عارفا بما يصلح أبناءه وتكمل به منافعهم فتلك حكمة الاجتماع اليومى والاسبوعى التى هى تلاقى الاخوان بصفاء القلوب ولما يتركون الاشتغال بمعايشهم ساعات يجددون معنى الانس بعضهم ببعض وتقوية معنى الالفة هى حكمة الاجتماع السنوى فى العيدين واجتماع ذوى الاطراف المتباعدة عند بيت الله المعظم والقبلة التى يتوجه اليها جميع المسلمين من أى ناحية فهم يتقابلون فى جميع أوقات الصلوات بالوجوه فعليهم أن يذكروا ذلك بالقلوب وأن يكون ذلك المعنى نصب أعينهم دائما فهذه المعانى هى التى يجب أن يلاحظها المعلم والمتعلم أوان التلقى وبملاحظتها تكون الاعمال جاعلين نصب أعينهم من أول الامر المنفعة العائدة علينا كما هو مدلول علمه ومنبه له فى آيات الكتاب العزيز عند كل أمر ونهى فلم يكن الامر بالصلاة والاجتماع لها الا لتلك المعانى كما أن الناس لم يؤمروا بانفاق بعض أموالهم فى الجهات التى عينتها آية انما الصدقات الا لارتفاق بعض الناس ببعض وتأليف القلوب واستئصال شأفة الحاجة وتعميم الخير فى المسلمين حتى لا يشتكى أحد منهم نكد عيش وقد أمر المسلمون أيضا بصيام شهر فى السنة ليكون فيه تنبيه لملاحظة مايلحق الناس من تعب الجوع والعطش ومشقة الامساك عن الشهوات حتى لا يرضى بذلك لغيره كما لا يرضاه لنفسه وقد قال عليه الصلاة والسلام مامعناه لا يؤمن أحدكم حتى يحب لاخيه ما يحب لنفسه فان من وسع الله عليهم واكثر حولهم نعمه وأحلهم محل الرفاهية ربما غفلوا وانصرفت أفكارهم عن رعاية الشركة العمومية فيما خلق الله من نعمة فتمتعوا بالمطاعم والمشارب والملابس وجيرانهم جياع عطاش عرايا

فيكون

فيكون المتمتعون الغافلون بمنزلة القساة العتاة الظلمة الذين يحاولون اختصاصهم
بنعم الله والاستئثار بها دون غيرهم متوصلين لذلك بقوة الابدان ومايفيده
المكر والحيل والمسلم بمنجاة من ذلك غير أنه ربما غفل كما هو شأن الانفس التى
لولا المذاكرات لحقها القصور والوقوف دون رعاية الواجبات فلم يكن ماموراً
الا تذكيراً بالخير وتنبيهاً من الغفلة وارشاداً لما فيه نفعه ودوام سروره اذ من
الممتنع الذى لا يتحصل أصلا أن يكون للانسان سرور وانشراح صدر وهو بين
قوم ليس لهم ذلك فان الاحوال سارة وغير سارة يقتضى بعضها بعضاً اقتضاء
طبيعياً جدياً ولذلك ترى المستأثرين يخطون على أنفسهم خط دائرة
لا يمكنون أحداً سواهم من تخطيها والدخول اليهم ذلك لتحصيل شركة خاصة
بهم يدور عليها أمر سرورهم وانشراح صدورهم وابتهاج نفوسهم ضاربين صفحاً
عما وراء الدائرة ليس لهم بهم علاقة الا بمقدار تسخيرهم فى الاعمال وامتهانهم
فى الاشغال التى يملؤن بثمراتها تلك الدائرة ويزينونها بها ويزخرفونها منها فهى
مناظر رائقة ومباهج فائقة هى دنياهم وآخرتهم ولولا احتماؤهم واحتواشهم
بتلك الدائرة ما قدروا أن يحصلوا لانفسهم شيئاً ما من السرور والناس على ما
هم عليه مما يقتضى خلافه * فاذن يتبين أن لا راحة للعموم ولا بهجة لنفوسهم
ولا رفاهة لخواطرهم الا باستحكام الشركة فيما أنعم الله به على جميع الناس
وفق التقديرات التى تقتضيها أصناف الاعمال كما يقع به التوافق والتراضى
حسب الحدود الدينية المحفوظة بطائفة الاعتدال وولاية ميزان القسط
والعدل بين الناس حيث كان الاختصاص لازماً والتفاوت ضرورياً يستدعيه
تفاوت الخلق فاذكياء الناس وفطناؤهم وذووا الفكر الصائبة منهم تضعف
أبدانهم عن عمل الجوارح فى الاعمال الشاقة المعاشية فيدلنا ذلك على أن الله
خلقهم لينتفع الناس بآرائهم وأعمال أفكارهم فيرصدون لذلك ولا يكلفون
عملا بدنيا ويقوم الناس بحفظ أبدانهم وترفيه خواطرهم وتهدئة أسرارهم
لتجود أفكارهم فى تدبير ما يعود على الكافة نفعه وبذلك التفاوت فى الخلقة
كان توزيع أصناف الاعمال على طوائف من الناس يجب على عقلاء الامة
أن ينظروا فى كل شخص وما يمكن أن يجيده من عمل ويصلح له فيوجهوه الى
طائفة ذلك العمل وحينئذ يكمل نظام الامة ويتم ارتفاق بعضها ببعض
وتنجلى مواضع الحكم الالهية فيما أمر به من عمل وما نهى عنه وأن مدار جميع
الاعمال على رعاية منافع أشخاص الناس وغايتها الفوز بدوام السعادة
تنظر الى ذلك وتعتبره بتلك الملاحظات فى الاعمال البدنية والمالية كل يوم

وكل أسبوع وكل سنة وفى العمر مرة فتبتدئ بمعرفة الله سبحانه وتعالى منشئنا وحافظ حياتنا ورازقنا بقوانا وأعمالنا لا لمنفعة عائدة عليه بل لمنافعنا ثم تأخذ فى القيام ببقية أركان الاسلام ملاحظا تلك المعانى التى سلف تكرير شرحها وايضاحها قصد التمكينها فى النفوس وحثا للعاملين والمتعلمين على ادامة مراقبتها حتى لا يكون الشروع فى عمل الابداء المنفعة فيه اليه ويكون الجد فى السعى ليس الا لتحصيلها فلم تكن الاشياء أركانا للاسلام الا لكونها أساسا لكل خير وأصلا لكل منفعة اذهى عبارة عن مذاكرات الاجتماع على معنى المساعدة وداعية المحافظة عليه وترتيبها فى الوجود واستحقاق الدرجات على ترتيبها فى الذكر لقوله صلى الله عليه وسلم بنى الاسلام على خمس شهادة ان لا اله الا الله وان محمدا رسول الله واقام الصلاة وايتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت من استطاع اليه سبيلا فاذا انتهى التعلم العام وتحصلت الناشئة على المعارف العامة التى لا تخص طائفة دون طائفة شرع بهم رؤساؤهم وأهل النظر فى تدبيرهم فى المعارف الخاصة واعمالها كل شخص يلحق بطائفته التى أدى اختباره والتفرس فيه وامتحان ميله ورغبته الى معرفة أهليته لها واستحقاق ان يدرج فى عددها ليقوم كل على أتم وجه بما يسند اليه ويربى له ويرصد لتحصيل ثمرته واجتلاب منافعه يذكره المعلم ذلك وقتا فوقتا جميع حين التعليم حتى يخرج منه عضوا كاملا من أعضاء الامة يرى أن لا استغناء لها عنه ولا استغناء له عنها بذلك تصلح حال الامة ويكمل نظامها على اكمل وجه ومن الله الهداية لقبول ما سألقيه بكل العناية وهمة الجد فى التخلص من اغلال القصور وقيود الامعية أى التبعية فى جميع الامور لتدبير الغير دون شعور بما يراد منه ليس له رغبة فى خير تبعث من قواه ولا رهبة من شر تصرفه عن طريق وجهته حال البهيمة العجماء التى زمامها فى يد غيرها يصرفها كيف شاء ليس عندها الا الصراخ فى بعض الاحيان تشتكى جوعا أو عطشا أو تمرح اذا شبعت ورويت ونالت بعض الراحة لعدم احتياج صاحبها اذ ذاك لاعمالها فى عمل ❊ وما سألقيه فى هذا الموضع وألتمس لذلك العناية فى قبوله هو التنبيه على أصول بدونها يستحيل أن تنال الامة طرفا من السعادة بل تلقى ما تلقاه متزايدة الشقاء متلاحقة الهوان مصرفة فى يد الغير لا أقول تصريف العبيد فان العبد يطلب لنفسه راحة عطالبة سيده أن يخرجه للسوق يبيعه لمن يقدر رأفته عليه ورحمته اياه ولا تصريف البهائم فان صاحبها يحسن القيام عليها لتتميم انتفاعه بها والامة من

نوع الانسان اذا لم تر لنفسها شرفا ولم تجد لجمعيتها مقاما وكانت أعمالها موكولة لتدبير غيرها كانت أخس من كل خسيس وتلك الاصول المراد التنبيه عليها هى هذه ﴿الاصل الاول﴾ أن يتراجع الناس وأعنى أهل الافكار الذين لهم شعور ما بمعنى السعادة ومعنى الشقاوة الى أصل الفطرة والخلو من جميع الاخلاق والعادات ثم يحدّوا السعادة الشخصية والعمومية حدا مبينا يميزها عن ضدها تمييزا كاملا ثم يبينوا الطريق الموصلة اليها من التخلق بالاخلاق الموجبة عموم المحبة والود وحسن الاشتراك فى الاعمال التى غايتها تلك السعادة المحمودة فما كان من الاخلاق والعادات يوجب نفرة ما قلت أو كثرت عدوه من الرذائل واجتهدوا فى اجتنابه وحاصله أن يطهر المعلمون وقيمو التربية أنفسهم من تلك الاخلاق وينزهوها عن سافل العادات ويأخذوا بذلك من يحاولون تربيته وجعله عضوا من اعضاء الامة فلا يقول المعلم المربى المكمل كما هو جار الآن لمن تحت يده من المتعلمين متى اغتاظ منه عبارة الا يوجب غيظا يا كلب يا خنزير يا ابن كذا وكذا يصرح بلعن أبيه وأمه ومايوجب عليه الحدّ حدّ القذف لو كان هناك التفات لمثل ذلك وتذكر لان ثم حدود انتقام ردعا وزجرا للمخالفين بارتكاب مانهت عنه الشريعة ووقفت على قبحه وحسن خلافه العقول فقد وضعت الشريعة حدودا زاجرة عن المنكرات الفاحشة وتعازير مؤلمة من ضرب وغيره للردع والزجر عما دون منكرات الحدود وقد فصل ذلك فى كتب الديانة التى بايدينا نقرأها ونلقيها دروسا فى كبار المساجد ثم الواحد من المتصدرين لذلك تراه وهو يقرر مسائل الحدود والتعازير متى أخذته حدة من رؤية مخالف من المخالفات العادية يأخذ فى ألفاظ السب المقذع والشتم الفاحش الذى يستوجب حدا أو تعزيرا وكأنه فى تلك الحال جن فسقط عنه التكليف أو لم يزل عاقلا ولم يعتقد صحة ماهو بصدد تقريره أو لعله يرى ذلك الشتم والسب فى حلقة الدرس وبين طلاب المعرفة من باب التعزير لذلك المخالف لكن قلنا ان تلك المخالفة مما لا يوجب تعزيرا على أن التعازير المفصلة فى كتب الفروع بحسب مقامات الناس ومنازلهم من الاعتبار واحيازهم من الطبقات ليس فيها شتم وسب وقذف انما هى ضرب لا يبلغ أدنى الحدود لبعض والاهانة باقامة من مجلس شرف لبعض وكشف الرأس من آخر وامثال تلك الاشياء وما أرى لذلك سببا الا أن هؤلاء الناس قد حضروا صغارا من قراهم وقد غرست فى طباعهم أصول تلك العادات القبيحة التى هى عادات سكان القرى وهم ناس أميون أفكارهم وأعمالهم

مختصرة فى الزراعة والقيام على البهائم يتشاجرون ويتخاصمون بمقتضى المزاحمة وتصدر منهم تلك الالفاظ ومايشاكلها من الافعال عقوبة من بعضهم لبعض كما أدت اليه أنظارهم التى لم تؤيد بحكمة ولم تضبطها شريعة فلما حضروا وتلك طباعهم وقد غرس فيها ماغرس وجدوا امكانا فسيحا جمعهم برسم أنهم يطلبون العلم وماهو العلم ولماذا يطلبونه ولاى غاية يسعون لافكر لهم فى ذلك ولاشعور بشئ منه انما يعلمون كما تعلم الببغاء صور الحروف تمر عليها أبصارهم وتنطق ألسنتهم بما دلت عليه من لفظ لايتجاوزون ذلك القدر ثم هم فى وقت التلقى والتعلم ليس لهم كثير عدوان من بعضهم على بعض لانفراد الشيخ اذ ذاك بمايجيء فى خاطره من انواع العدوانات والسفاهات والمضاحك فى رضاه وغضبه فاذا فارقوا تلك المحافل ورجعوا الى مابينهم أخذوا فى مخاطبة بعضهم بعضا بالخطابات القروية التى نشأوا فيها وفاض بينهم السباب والمشاتمة وربما خرجوا الى الملاكمة والمشاجرة وسالت بينهم دماء ثم لاتجدهم يقتصرون على المشاتمات القروية بل يكونون قد أفادتهم مجالس الدروس أنواعا أخر من الشتم كأن يقول ياكافر ياذمى يامنافق يامرتد يامشرك يامبتدع الى غير ذلك من الالفاظ التى تعرض فى تقرير الفروع نشأوا ذلك المنشأ وشبوا وشبت فيهم تلك العادات وعليها شابوا ودخلت معهم فى قبورهم وبها يعرضون على ربهم وتنشر عنها صحائفهم فى ذلك الجمع فهذا أول أصل من اصول الشقاوة وأكبرها يجب على الناس اجتنابه والتحاشى بالكلية عن التلوث بمخامرة شئ منه والاجتهاد كل الاجتهاد فى تحصيل مقابله الذى هو أصل من اصول السعادة وهو تنقية الالفاظ وتنزيهها عما يوجب نفرة شخص من شخص وكذلك الافعال ولايتأتى الا بتطهير النفوس وتنزيه القلوب من الغضب السبعى والهوى البهيمى رجوعا الى التحقق بمعنى الانسانية الذى أبان عنه كل الابانة دين الاسلام واعترفت بحده العقول وجزمت بانه الاصل الاول لبلوغ سائر أنواع الخيرات * الاصل الثانى الوطنية * وهى كلمة دائرة على الالسنة تحقق بمعناها قوم فرشدوا وسعدوا وخلا أخرون فضلوا وشقوا تسمع من العامة يقولون الوطن عزيز ومن المأثور القديم حب الوطن من الايمان ولما قال بعض الشعراء

لايمنعنك خفض العيش فى دعة * نزوع نفس الى أهل وأوطان
تلقى بكل بلاد ان حللت بها * أهلا بأهل وجيرانا بجيران

حكم كثير من أولى الفهم وذوى المروءة ان هذا الشعر صادر عن طبيعة لؤم

وخليقة

وخليقة خسة حيث كان مقتضاه اهمال أمر حماية الوطن والمحافظة على الاهل والجيرة وذلك أمر توافقت العقلاء وذووا الهمم على وجوبه وبذل الجهد فيه ثم يكون العيش مايكون لايرون مع اهماله خفض عيش ولا تمتعا بحياة وأكبر فضيلة تعد من فضائل الامة العربية قال بعض شعرائهم

وانى وان كنت ابن سيد عامر * وفى السر منها والصميم المهذب
فما سودتنى عامر عن وراثة * أبى الله أن أسمو بام ولا أب
ولكننى أحمى حماها وأتقى * أذاها وأرمى من رماها بمقنب

﴿وقال آخر منهم﴾

انى اذا ما الشك بين أمره * وبدت عواقبه لمن يتأمل
أدع التى هى أرفق الحالات بى * عند الحفيظة للتى هى أجمل

الى غير ذلك مما يتضمن هذا المعنى وهو كثير يفوت الاستقصاء فانت تراهم يجعلون الحماية والقيام بحفظ الوطن والعشائر هو السبب فى الشرف والسودد وانها أجمل الحالات وان كان غيرها أرفق بالنفس وأبقى لها ولذلك فر من الحرب من فر واستهان مايلحقه من العار وصبر على مايسمعه من الذم والهجاء وكان الفرار فى الشريعة من أكبر الكبائر اذ كان العيش دون الحماية مقرونا بالذل وأى صفاء يؤمل فيه مع الذل كما قيل

ذل من يغبط الذليل بعيش * رب عيش أخف منه الحمام

فيجب على سائر الامة التى ترى مجموعها بمنزلة شخص واحد وجميع آحادها بمنزلة أطرافه ان تعتبر الوطن كما سلف اعتبار الشخص داره التى يحافظ على اختصاصه بها وكل عنايته فى وقايتها وحمايتها من أى سوء يقدر حصوله وعلى سائر المعلمين ان يلهجوا بكلمة الوطنية ويحاولوا التحقق بمعناها ويجعلوها أساس تعليمهم وارشاداتهم ومواعظهم فى تأليف القلوب وتمتين أسباب الاجتماع الحقيقى المحصل لامة تكون مستحقة لهذا الاسم يطلق عليها بالحقيقة لا مجازا بعلاقة المشابهة مثلا معلم الهندسة يقول للتلميذ الذى يحاول تعليمه هذا الفن والعمل به اعلم يابنى انك انما تصرف نفيس عمرك وتستعمل أوقات شبابك فى تعلم هذا الفن ضاربا صفحا عن الطبيعة ومقتضياتها الا بمقدار الضرورة لامساك الرمق وحفظ الحياة لاجل ان تحسن تأدية خدمة وطنية بها يرى لك الناس فيهم مكان رفعة ومحل جلالة يسارعون فى تحصيل أهوائك ويبادرون لاتمام مرامك اذ تكون قد عظمت منفعتك لهم بما ترشدهم اليه من حفر مجارى المياه لسقى مزارعهم

واقامة القناطر لما لها من المنافع واصلاح الجسور والطرق واحكام الابنية واتقانها وتتميم المرافق فيها واذا تكون لمن يعمل بين يديك تلك الاعمال بمنزلة أب شفوق رحيم وهم لك بمنزلة ابناء بررة مطيعين لا تشغلهم الاعمال وهم ولك خير وصلاح لا تزال تتفكر فيما تجود به اعمالهم و يسهل عليهم مباشرتها و يقرب تمامها ليس لك ولا لهم نظر الا فى اداء خدمة الوطن وعمارته وتحصيل المنافع المشتركة بينك و بينهم و بين اخوانك واخوانهم وأبائك وأبائهم وأبنائك وأبنائهم الذين هم آحاد الامة لا كما هو حاصل فى الامة الصورية المستحكمة الافتراق فهى كما سلف شرحه آحاد ليس اجتماعها الا من جهة القهر وضبط الحكم وخوف التلف فانك ترى المهندس يقابل العملة بقلب عدو و وجه بغيض ولسان فحش همه جمع دراهم ليسمح لهم بالشروع فى العمل وتخليصهم من كرب التعطيل والتعويق وذلك انه اذا لزم حفر ترعة أو تطهير جدول أو غير ذلك من الاعمال جمعوا له ناسا تحت رياسة المهندس وأمره فلا يبدؤن العمل الا باشارته ولا ينصرفون منه الا بحكمه ولا يمضون فيه الا بتعريفه فاذا حصلوا تحت يده أخذ فى رسم وتخطيط واشغال ليس مقصوده منها الا اطالة انتظارهم وتعويقهم عن اشغال معايشهم حتى يحرج صدورهم و يضيق منافسهم فاذا جمع دراهمهم خفف عنهم هذا الكرب ومضى بهم فى العمل لكن باهانة واحتقار والفحش فى القول وايذاء بالفعل لا لغرض تحسين العمل وسرعة انقضائه بل لتمهيد مقدمات لجمع دراهم صرفهم الى بلادهم أفهذا حال من يعتبر الارض له وطنا والناس له أهلا لا والله انما هو حال اعداء عداوة ليس لها شكل فى العداوات الدنيوية فالحذر الحذر يا بنى من أعمال هؤلاء المتوحشين الذين لا حظ لهم فى الانسانية ليس لهم مروة تثنيهم عن قبائح الافعال ولا يرجعون لدين يردعهم عن السيئات والحمد لله قد ذهبت أيام أولئك الطغاة البغاة الظلمة العتاة ونشأت هذه الاوقات باذكياء فطناء ذوى مروة وشرف عرفوا للوطن حقه فهم يعملون على الحدود التى سبق بيانها و بتلك الانظار التى سلف شرحها ونحن فى ارشادك لها وتنبيهك عليها فمثل هذا الكلام المبنى على أساس الوطنية يجب ان يلهج المعلمون ويحاولوا التحقق بمعناه حتى يشب المتعلمون وقد غرست فى طباعهم اصول الاخلاق الفاضلة والعادات الحميدة فان ذلك أوان غراسها و يكاد يكون من المحال ان يتنازل الانسان عند كبره عما رسخ فى طباعه أول عمره كما قيل

وكل امرئ والله بالناس عالم * له عادة قامت عليها شمائله

تعودها فيما مضى من شبابه * كذلك يدعو كل أمر أوائله

وأذكرك هنا بالجملة المترجمة التى سبق ايرادها وهى سعادة الامة وغناها يرتبطان بالتربية من الصغر والكلام فى هذا المعنى كثير والعاقل يكفيه مادل على الخبير وكما يقول معلم الهندسة مثل ذلك الكلام ويبنيه على أساس الوطنية يقول معلمو الطب أيها الطبيب الحكيم ان شاء الله تعالى انما تكابد ما تكابد من الانكباب على تعرف أنواع الامراض وأسبابها وعلاماتها والنباتات وخواصها وتباشر ما تباشر مما تنفر النفس من مباشرته فى قاعة التشريح ومضاجع المرضى لتؤدى الخدمة الوطنية الجليلة التى هى النظر فى أمر صحة النامى والحى لتحاول حفظها وتقويتها عند ضعفها خدمة تنال شرفها وتغتنم خيرها ويعترف لك الناس بقدرها وعظم محلها من حياتهم وكمالها وتمام البهجة فيها وكونها خدمة وطنية حقيقة انما يظهر بعموم انتفاع الناس بها الاتشتط على فقير فتستشعر نفسه اليأس من استرحامك بالنظر اليه ولا على غنى فتنازعه نفسه التى ركب الشح فى خلقها فيكون عنده نوع ضجر لا ينبغى ان يكون عند المستشفى فان انقباض النفس يساعد المرض ويعاند الدواء وكما ان الطبيب يجب ان يكون حسن المعاملة سهل الاستدعاء يشترك فى الانتفاع به جميع الناس يجب عليهم ان يبذلوا جهدهم وينقادوا لحكم الذمة والمروءة فى اكرام الطبيب واجلال مكانه والاعتراف بمنته فان التقصير فى حقه كالتقصير فى حق كل من لك اليه حاجة يكسر الخاطر ويفتر الهمة ويبعث على التغاضى كما قيل

ان المعلم والطبيب كلاهما * لا ينصحان اذا هما لم يكرما

فاصبر لدائك ان جفوت طبيبه * واصبر لجهلك ان جفوت معلما

هذا * وعلى كل معلم فى أى طائفة من طوائف الامة التى توزعت الخدم اللازمة لعموم الحياة وكمال الانتفاع بها كيفما كانت فى نظر الناس الذين لم تكمل تربيتهم ولم تستوف آدابهم فانهم يرون خدمة جليلة وخدمة حقيرة بحيث يتشاتمون لقصور نظرهم باحتراف بعض الحرف كما سبق القول فيه فيقول الواحد للآخر يا اسكافى يا حائك يا مزين وأما من كملت تربيته فانه لا يرى لخدمة حقارة البتة فالملك المحترف بالنظر فى امور الامة وسياستها لا يكون فى اعتباره وملاحظته بعيد المنزلة من حيث الخدمة عن أى محترف بأى حرفة حيث كان الكل ضروريا واخلالا فى بقاء الانسان وحسن حياته (سئل) حائك عن صناعته فقال تزيين الاحياء وتجهيز الموتى فهذه ثمرة عمله فكيف يصفه

واصف بالحقارة ان يجعل الوطنية أساس تعليمه ولا يغفل وقتا من الاوقات عن التكلم بها فان كل شئ اذا أخذ الانسان به من أول نشاءته ودرب فيه وعود عليه كان له سجية وطبيعة تظهر عليه آثارها دون تكلف كما هو شأن الغرائز بخلاف ما اذا اعتاد فى صغره ورأى عند كبره مخالفة تلك العاد للادب فانه يتكلف بالمحاولة مجانبتها ليكون من ذوى الادب فاذا غفل وقتا ما عن رعاية الادب ظهر عليه أثر تلك العادة القديمة التى أخذت لها من النفس موضعا ومن الدم محلا ❊ فاذا عرفت ان الانسان يخلق خاليا وانه بالتربية يكون له خلائق واحوال ترسخ فيه بحيث تعدله طبائع فهمت ما قيل ونقل عن عقلاء الشعراء قال أبو الاسود الدؤلى أحد أكابر التابعين من أصحاب على كرم الله وجهه

وكل امرئ والله بالناس عالم ❊ له عادة قامت عليها شمائله
تعودها فيما مضى من شبابه ❊ كذلك يدعو كل أمر أوائله

فنبه رضى الله عنه على ان الحكم فى الانسان الغالب عليه للعادات الاولى والغرائز السابقة وازالتها بعد تمكنها عسير جدا وقال آخر

كل امرئ راجع يوما لشيمته ❊ وان تخلق اخلاقا الى حين

﴿وقال غيره﴾

نقل الطباع من الانسان ممتنع ❊ صعب اذا رامه من ليس من أربه
يريد شيأ وتأباه خلائقه ❊ والطبع أملك للانسان من أدبه

وقال المتمدح بانه ربى وأدب وعود جميل العادات من صغره

أكنيه حين انا ديه لاكرمه ❊ ولا ألقبه والسوأة اللقب
كذاك أدبت حتى صار من خلقى ❊ انى وجدت ملاك الشيمة الادب

كانت العادة عند العرب ان يظهروا تعظيم بعضهم لبعض بان يتداعوا بالكنى كل يقول لصاحبه يا أبا فلان وكانت الالقاب فيما بينهم مشعرة بالاستهزاء وعليه ورد الامر النبوى اذ يقول صلى الله عليه وسلم اكنوا أولادكم قبل ان تغلب عليهم الالقاب فانت ترى هذا المتمدح جعل الادب هو تعظيم بعض الناس بعضا وجعل سوء الادب فى كل ما يشعر بالاحتقار وان الادب ومحاسن الشيم لا يكون الا بالتعويد من الصغر فتلك العادات الثابتة من الصغر التى يصعب تغييرها بعد هى المرادة بقول الناس طبائع وغرائز وخلائق والافتلك الاشياء ليست فى خلقة الانسان كما أشار اليه صلى الله عليه وسلم بقوله العلم بالتعلم والحلم بالتحلم الاول ظاهر لا مرية فيه والثانى خفى

بعض

بعض الخفاء يظهر لك بتأمل ماسلف وفهمه (وههنا) أمر تنازع الناس فيه لابد من الكشف عنه وبيان الصواب فيه وهو أن الانسان هل يختلف بطبع الخلقة حتى يقتضى طبع شخص أحوالا وطبع آخر خلافها اوليس كذلك وان جميع مقتضيات الاحوال انما هي بالتعويد وكثرة المزاولة مثلا البخل والسخاء حالان مختلفان فهل فى طبع أحدهما ما يقتضى السخاء وفى طبع الآخر ما يقتضى البخل أوهو تعويد وأمر طارئ فالكشف عن ذلك أن مثل الذكاء والغباوة والفطنة والبلادة وسرعة الحفظ وبطئه وقوة الذكر وضعفه لا اشتبه أحد فى كونها خلقا وفطرا يدل عليه اختلاف التراكيب والاوضاع والامزجة فانك ترى الذكاء والفطنة حيث الجمال وتمام التناسب وحسن اشكال الاعضاء الخاصة بها ومن هنا تسمع أن الانبياء عليهم الصلاة والسلام أجمل أهل عصورهم وانك ترى كبر الرأس يقتضى أثرا لا يقتضيه صغره وكذلك سعة الجبهة وضيقها ونتوؤها وانخسافها ويستدل على أشياء بشمم الانف وقناه وفطسه واتساع مشق الفم وضيقه فثبت دون اشتباه ان فى الخلقة أشياء يجب اعتبارها فى استعمال الانسان وتربيته كما سبق التنبيه عليه فمن يراد جعله عالما حافظا خادما فى الامة بفكره وترويه ونظره فيما يعود عليها بالخير ويحفظها من تطرق الاسواء يجب أن يكون من أهل الذكاء والفطنة ولا ينبغى ان يظلم الغبى البليد بتكليفه ما ليس فى طاقته مع ان له عملا ينفع فيه ويسهل عليه مزاولته وبه يقاسم الذكى الفطن خدم الامة فهذا وما يليق به وذاك وما يليق به وهذا أصل يجب على المتكفلين برعاية الامة اعتباره وبناء التصرف عليه اذ الاصلاح للاحوال الابه والفساد انما يجئ من اسناد الاشياء لغير أهلها فيستعملون الغبى فيما لا يستعمل فيه الا الذكى فيضيعون العمل ويستعملون الذكى فيما لا يستعمل فيه الا الغبى فيسأم ويضجر ولا يتم له عمل أيضا وقد ضربت لنا الامثال فالعجب كل العجب بعد من قلة التنبه لذلك ووضع الشئ فى غير موضعه الذى يسمى ظلما وقلة ذوق اذ يفسرون الذوق بوضع الشئ فى موضعه والظلم بعدم وضع الشئ فى موضعه مثلا خلق الله الجمل للحمل وخلق البقر لجر الاثقال فمن الظلم أن يستعمل البقر فى الحمل وأن يستعمل الجمل فى الجر وذلك أن قوة البقر امامية تذهب به الى تلك الوجهة ولذلك اذا دفعته من أمامه لم تقو على مدافعته واذا دفعته من خلفه اندفع ورأيت لك عليه قوة وقوة الجمل فى نصبته وعلى قوائمه الاربع وذلك انه زائد التركيب على غيره من الحيوان فان كل حيوان سوى الانسان له رجلان من أمامه ويدان من خلفه على

خلاف وضع الانسان ومن ثم كان الحيوان منكبا وكان الانسان مستويا وكون الحيوان رجلاه أمامه ويداه خلفه أمر ظاهر فان الرجل هى العضو الذى ينثنى الى الخلف واليد هى العضو الذى ينثنى الى امام وللجمل من امامه عضوان ينثنيان الى الخلف فهما رجلان وله من خلفه عضوان ينثنيان اثنائين مختلفين فهما يدان ورجلان فالجمل يدان واربع ارجل وابقية الحيوانات يدان ورجلان فقط واعتماد الحيوان ومصب ثقله على رجليه ولذلك اذا داس الحمار برجله اى عضوه الامامى على شئ أثر فيه وأذاه بخلاف ما اذا داس عليه بقائمته الخلفية فاذا كان الله سبحانه وتعالى خلق كل شئ لعمل يليق به وخاصة يتميز بها وأفهمنا ذلك فى كثير من الاشياء بقليل النظر وايسر الفكر وتعلق الحواس الظاهرة فما لنا لا نستعمل الافكار ونشغل الانظار فى تتميم ذلك لانفسنا ومعرفته لمنفعتنا حيث نستعمل كل شئ فيما يليق به كما استعملنا كثيرا من الاشياء باول الهداية فيما يليق به فاستعملنا البر والذرة مثلا فى غذائنا واستعملنا الفول فى غذاء الحيوان وان شاركناه فيه بكثير العلاج حتى تهيأ لسهولة استعمال القوة الهاضمة والغاذية فيه فكما أنه لا ينبغى ان نستعمل البر بدل الفول والفول بدل البر كذلك الاذكياء من الناس لا ينبغى أن يستعملوا استعمال الاغبياء والاغبياء لا ينبغى ان يستعملوا استعمال الاذكياء وقد بان هذا الامر ووضح والطريق الى احكامه سهلة والاصلاح به دون شبهة مربوط وقد خلق الله جميع الاشياء كاملة الادوات والآلة لا تحتاج فى تصرفها الذى خلقت له الى الاستكمال بخارج عن ذاتها ا ترى السباع ذات انياب ومخالب وقوى ليس للانسان مثلها وهو لا ريب محتاج اليه فاعطاه قوة العقل التى بها يهتدى لتحصيل ما يستكمل به ويدور عليه امنه وراحته ورفاهة سره وتمام اعماله وكمال انتفاعه بحياته فتراه توصل بعقله وفكره الى اختراع آلات تقوم له فى دفع الاذى عن ذاته مقام انياب السباع ومخالبها وقواها فترى الشخص الضعيف النحيف الضئيل الواهى القوة يصطاد بمعونة تلك الآلات أشد الحيوانات واقواها واصعبها مراسا وقوة بطش كالاسد والنمر والفيل وتراه قد احتال حتى استعمل كثيرا من البهائم فى أشغاله واهلها بانسه حتى وقع الاشتراك بينه وبينها فى تدبير المصالح وتحصيل المعايش واكتسى من اصوافها واوبارها واشعارها واكتن بجلودها وتغذى بدرها ونسلها فكانت له بعد الفطام عوض الامهات وفى هذا الوضع يتعجب المتعجب من تكبر المتكبرين وتعاظم المتعاظمين وتغطرف المتغطرفين وقلة شكرهم وعدم

اعترافهم لخالقهم بجميل المنة وجزيل النعمة وعدم استشعارهم فى نفوسهم مايبطل معه التكبر ويزول عنده التعاظم من هوان الاصل وخسة المربى اذ الاصل البعيد التراب والقريب الماء الدافق والمربى بالبان البقر والغنم التى تخلف الأمهات بعد الفطام والقول بهوان شئ وخسته وعزة آخر وشرفه هو فى ادنى النظر والافالاشياء سواء والعناية الالهية فى خلق الكل واحدة وبرحمته سبحانه وتعالى جعل التميز بين الناس بمحاسن الاعمال قال تعالى ليبلوكم ايكم احسن عملا

﴿الاصل الثالث الادب﴾

الادب كلمة دارت على الالسنة واستخفتها القلوب واستحلتها النفوس واستعملها الناس فى التناصح والتزاجر ونعماهى والوطنية كلمتين لوتحقق بمعناهما جميع الناس سكان الارض الواحدة والافق الجامع لم يتعد أحد على أحد وكانوا يدا واحدة فى تحصيل المنافع ودفع المضار أمرا يندفعون اليه بالطبيعة سهلا لا كلفة فيه ولم تكن الحكومة فيهم اذذاك الا تتميما للنظام وتكميلا للهيئة وكان الحاكم الشرعى مفتيا لا قاضيا اذ يكون حينئذ غرض الناس انما هو استكشاف الحق ومعرفة المشروع ثم الامتثال والمضى مع الاحكام الشرعية لا يطمع أحد فى كسب أحد ولا يستكثر نعمة الله عنده رضا بأفعال الله واعترافا بسابق حكمه كما قيل

لوأنصف الناس استراح القاضى ❊ وبات كل عن أخيه راضى

وحقيقة الادب أن يعرف كل حدوده ووظيفته فلا يتخطاها حتى لا يكون داخلا فيما لا يعنيه ويحسن اسلامه كما قال صلى الله عليه وسلم من حسن اسلام المرء تركه مالا يعنيه ولا يقصر عن تأدية وظيفته فيعد مفرطا ويعرض نفسه للعتاب أو العقاب ولهذا المعنى اشير من يقول من تمام جدك وقوفك عند حدك فاذا عرف العسكرى مثلا أن وظيفته منع تعدى بعض الناس على بعض باللطف والانسانية وبعض الاخافة حيث تلزم لشدة جهالة المزجور وأن من وظيفته حماية الاطراف وحياطة الامة مما عسى أن ينالها من سوء ومضى على ذلك ولم يقصر فيه مضى عارف غير مقهور ولا مستعمل استعمال الآلة كان العسكر على أتم ما يكون من حال وتأكدت بينهم علاقة المودة والمحبة كما يكون ذلك بينهم وبين الامة فيبادر العسكر بغاية النشاط والفرح الى تأدية وظيفتهم وتبادر الامة كذلك الى بذل ما يحتاجه العسكر وتحسن به معيشتهم من اكسابهم ولم يكن خروج الواحد من الامة الى العسكرية أمرا صعبا فظيعا

كما هو فى تصور الناس الآن وسببه ظاهر اذ يؤخذ الواحد الى ذلك الاستعمال الذى تنفر منه النفوس مقهورا معطل المنافع محجوزا عن كل ما يهوى ثم هو لا يعرف له عملا ولا يرى شغلا حتى تمضى أوقات قوته و ينتهى فى ذلك نفيس عمره وكذلك كل طائفة اذا كان اشتغالها بأعمالها عن معرفة وملاحظة منفعة والاساس الوطنية والحال الادب دون تقصير حتى يقال قليل الادب ولا افراط حتى يقال متملق والتملق أشد ثقلا وأصدع للقلوب من قلة الادب والعقاب فيه بغض صاحبه واستثقاله من حيث يرى أنه قد لطف ورق وقام باللازم فاذا كانت الحال المحمودة هى الوسط واعتدال الوزن وجب أن يشتغل الناس ويتخابروا ويكثر بينهم الحديث فى معرفة الحدود ليقفوا عندها و يعملوا على مقتضاها وبهذا يتبين أنه لا يتم صلاح الامة الا بعموم المعارف لا أقول انه يجب على كل واحد أن يعرف الهندسة والجبر والمقابلة ودقائق الاحكام وجميع أبواب الفقه وتفسير القرآن ومصطلح الحديث الى غير ذلك من العلوم وانما الواجب أن يشتغل الناس بتلك العلوم طوائف كل طائفة بما يمكنها ضبطه واحكام العمل به و بقية الطوائف تعترف لها بأهمية علمها وعملها وتمتثل أحكامها حيث كان الجميع يسعون الى غرض واحد وبذلك تكون الامة كما سبق النطق به غير مرة بمنزلة بدن شخص والطوائف بمنزلة أعضائه فلا تكون مباشرة القدم الارض ولا قوام للبدن بدون ذلك سببا لهوانها وانحطاط رتبتها عن الرأس الذى هو أعلى البدن فلا شرف لعضو على عضو من جهة أصول الوظائف وتصنيف الاعمال شرفا يقتضى هوانا انما هو تفاوت فى الشرف بواجب اعتبار وتعيين رتب والادب توفية كل رتبة حقها فالصغير يحترم الكبير والتلميذ يحترم الشيخ والتابع يجل المتبوع و يعظمه بحيث لا يضجر أحد من أحد وقد قيل فى بيان فضيلة الادب

ما وهب الله لامرئ هبة ❊ أفضل من عقله ومن أدبه
هما حياة الفتى فان فقدا ❊ ففقده للحياة أليق به

و ينتهى بك الى معرفة مقدار الادب حق معرفته قوله صلى الله عليه وسلم ادبنى ربى فاحسن تأديبى وعند ذلك اشار الى معنى الخضوع والتنزل الى الاحوال المقاربة حيث يقول أجلس كما يجلس العبد وآكل كما يأكل العبد ومع تلك الاحوال فيه صلى الله عليه وسلم لم يتمكن اصحابه أدبا منهم ان يتأملوا صورته ويستثبتوها فكان بعض الاختلاف فى رواية شمائله ولم يكن يتمكن من تأمل صورته غير الصبيان ولبعض الشعراء فى صفة عظيم

حليم

حليم اذا ما الحلم زين اهله * مع الحلم فى عين الرجال مهيب

فللحلم موضع يكون فيه زينة وفى غيره لا يكون حلما بل خور وضعف واهمال ومع كون الانسان حليما متنزلا للناس لا تجد ذوى الادب يتخذون ذلك وسيلة للجراءة على رتبته بل هو فى محله من الهيبة ومكانه من الرفعة وبالآخرة متى استحكم فى الناس الادب وتحققت فيهم الوطنية لم يكن لنوع من انواع العقوبة ذكر اذ لا داعى عند ذلك لاهانة احد احدا او شتمه او ضربه وكيف مع قلة الادب يمكن اطراح العقوبات وتكليف الناس التحاشى منها وانى لارى ذلك من العبث فلا ينبغى ان يقال لا تعاقبوا بالضرب ولا تؤذوا خلق الله وانما الواجب ان يحثوا على الادب ويزينوه فى القلوب ويلهجوا بذكر فضائله برائق العبارات ومحاسن المقالات يكتبون فى ذلك رسائل متقاربة الاطراف تتناولها الافهام ويشافه الناس بعضهم بعضا امرا مستمرا مر عيا خصوصا مع الناشئة فاذا أخذ الادب مأخذه فى الطباع جرت امور الناس على ما يرغبه العقلاء وذوو الفطنة من سداد وعند ذلك لا تجد العقوبة موضعا ويقل حديد الطبع ومثله يتوجه عليه الامر ويسهل تكليفه وضبطه بخلاف ما اذا كانت حدة الطبع عامة والاندفاع مع الغضب مشتركا فان التكليف بترك العقوبات لا يكون ممتثلا ولو امتثل ظاهرا القوة الامر الوقتية فمع ضعفها يعود الحال لأسوأ مما كان عليه فلا شبهة بعد فى ان اصل عموم الصلاح للامة هو طهارة الاخلاق والتحقق بمعنى الوطنية وملازمة الحدود الادبية وعلى كل من اسند الله اليه شيأ من امور الامة ان يبذل جهده فى احكامه ويصرف كل اوقاته فى الاشتغال به ويدقق النظر فى تحسينه مستعملا فى ذلك الاستشارة واذا اشير عليه بما هو داخل فى التحسين بادر الى امتثاله واسرع فى تحقيقه والله الهادى والحمد لله رب العالمين

تمت وصلى الله على سيدنا محمد
النبى الامى وعلى آله
وصحبه اجمعين
آمين

تم طبع هذه الرسالة البهية بالمطبعة الشرفية فى أوائل شهر ذى الحجة
سنة ١٢٩٨ هجريه على ذمة حضرات المشتركين حضرة النبيه
الافخم محمد أفندى مصطفى وحضرة الفاضل الشيخ
محمد صالح وحضرة الفاضل الشيخ على عمرو
وحضرة الفاضل الشيخ أحمد الليثى
الكتبى وفقهم الله لمثل هذه
المآثر الخيريه
آمين
م

بيان الثمن بالعمله الصاغ

أبيض		نباتى	
ـ	ص	ـ	ص
	٥	٢٠	٥


3 1761 07860809 8